

رشيد بن مالك

مكتبة النقد الأدبي

السميات السردية



حقوق التأليف محفوظة، ولا يجوز إعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه على أية هيئة أو بأية وسيلة إلا بإذن كتابي من المؤلف والناشر.

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

المملكة الأردنية الهاشمية رقم الإيداع لدى الدائرة الوطنية (٢٠٠٦/٨/٢١٤٤)
رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر (٢٠٠٦/٧/٢٦٨٦)

٨١٣,٩

مالك ، رشيد

السيمانيات السردية / رشيد مالك. - عمان: دار
مجدلاوي ، ٢٠٠٦
() ص.
ر.أ: (٢٠٠٦/٨/٢١٤٤)
الواصفات: / القصص العربية // النقد الأدبي /

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ISBN 9957-02-250-4 (ردمك)

Dar Majdalawi Pub.& Dis.

Telefax: 5349497 - 5349499

P.O.Box: 1758 Code 11941

Amman- Jordan



دار مجدلاوي للنشر والتوزيع

تلفاكس : ٥٣٤٩٤٩٧ - ٥٣٤٩٤٩٩

ص. ب ١٧٥٨ الرمز ١١٩٤١

عمان - الاردن

المحتويات :

7	مقدمة
9	مستقبل الدراسات السيميائية في العالم العربي
10	واقع وآفاق السيميائية في الفكر الأوروبي
13	التطورات الراهنة في النظرية السيميائية
18	المربع السيميائي، المسار التوليدي، السردية
23	واقع وآفاق السيميائية في العالم العربي
23	الحركة السيميائية في الدراسات العربية المعاصرة
45	قراءة سيميائية في كليلة ودمنة لعبد الله بن المقفع
46	التحريك / الاستراتيجية الخطابية في النص
50	المواجهة / البنية الجدالية في النص
69	الببليوغرافيا
71	دراسة تحليلية لرواية نوار اللوز
72	النظام السيميائي لفاتحة الرواية / البحث في مستويات النص وأشكال بنيته
87	البنية السردية وتحليلاتها الدلالية في رواية نوار اللوز
129	شخصيات الرواية / تصنيفها وتنظير مكوناتها الشكلية والدلالية
155	قراءة سيميائية في رواية "عواصف جزيرة الطيور"

156	رهانات الصراع في الرواية
179	ببليوغرافيا البحث
179	ملحق خاص حياة الروائي خلاص جيلالي وإنتاجه
181	المراجع المعتمدة في البحث [مرتبة حسب ظهورها في النص]

× مقدمة المؤلف

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء حزمة أخرى من الضوء على "السيمائية"، برصفا خياراً منهجياً مغايراً للفتاوح النقدي التقليدي، بما يساعد على تطوير "سيمائية عربية" ليست نسخة حرفية أو مطابقة للسيمائية في الغرب. وقد خصصنا المدخل النظري لقراءة بعض الإنجازات السيميائية العربية الراهنة وتوصيف المشاكل المنهجية العالقة بخصوص هذا التوجه النقدي الجديد الذي تمكن في ظرف وجيز من فرض سلطته المعرفية على البحوث التي يتبنى أصحابها مقتضيات الخطاب العلمي في قراءة الأنظمة الدالة باللسان وغير اللسان. إن ما تحقق في هذا المجال، على الرغم من أننا ما زلنا في بداية الطريق، ليس وليد لحظة حاضرة بل إنه محصلة لمسار طويل محفوف برفض وتبذ كل ما له علاقة بالتفكير العلمي وتسييج الدراسة النقدية في دائرة الأحكام المعيارية وتعبئة الطاقات النقدية الشابة لمحاربة الحداثة بحجة أنها "وافدة من الغرب". ولا يهم في كل ذلك إن كانت المناهج الحداثية تبشر بحاضر تكون فيه السلطة للفكر أو بمستقبل يحقق للإنسان وجوده في لحظة يرفض فيها أو يقبل تبني هذا التيار أو ذاك من محض إرادته ومن منطلقات قناعاته المؤسسية.

ومع ذلك، فإن البحوث البنيوية والسيمائية على حد سواء في الساحة النقدية العربية استطاعت منذ ظهور إرهاباتها الأولى في السبعينيات أن تحدث هزة عنيفة في الممارسات النقدية السائدة بتقديم بدائل منهجية لم تلق إقبالا في مستوى الأهمية التي تكتسبها وقد آن الأوان لتقديم قراءات موضوعية حول ما تحقق في ضوء الإنجازات السيميائية الأوروبية الراهنة، وبلورة رؤية كفيلة بتوسيم نقاط القوة والضعف يتم على أساسه صناعة خطاب نقدي جدير بهذا الاسم.

تناولنا في القسم التطبيقي من هذه الدراسة مجموعة من النصوص السردية بالدرس والتحليل. وركزنا على نص قديم هو نص "النصيحة" التي أسداها الفيلسوف بيدبا للملك دبشليم، كما ورد في كليلة ودمنة لابن المقفع. كما اخترنا روايتين،

الأولى رواية (نوار اللوز-تغريبة صالح بن عامر الزوخري) لواسيني الأخرج،
والثانية (عواصف جزيرة الطيور) لجيلالي خلاص، وحاولنا بقدر الإمكان في أثناء
تعاملنا معها تجاوز المعضلة المصطلحية بتبسيط الخطاب النقدي رغبة منا في
تحقيق الوصلة العلمية بالقارئ العربي. كما حاولنا تنويع زوايا النظر إلى النص
باستغلال القضايا النظرية السيميائية، دون التقيد الآلي بها، وتسخيرها للإصغاء إلى
نبيضاته والتميز بين أصواته وضبط آليات اشتغاله والوقوف عند تجلياته الدلالية
بعد التأكد من سلامة ما وضعناه من فرضيات والتحقق منها في أثناء التحليل. ولما
كانت هذه النصوص تشترك 'دلاليا في موضوع السلطة وعلاقتها بالشعب
والمتنّف، فإننا عبأنا المقاربات المنهجية لفهم واستجلاء المعنى الذي يتسرب عبر
الممارسة السياسية.

رشيد بن مالك

مستقبل الدراسات السيميائية

في العالم العربي

⑤. مقدمة منهجية^x

إن الحديث عن مستقبل الدراسات السيميائية في العالم العربي يعد مغامرة صعبة لاعتبارات عديدة؛ أولها: أن الكلام على هذا الموضوع يفترض وجود جرد لكل الدراسات السيميائية العربية، وهذا أمر يكاد يكون مستحيلا للانقطاع العلمي الموجود بين المؤسسات العلمية العربية والباحثين العرب. ثانياها: يفترض أيضا تشكيل فرق بحث يأخذ أصحابها على عاتقهم، كل في إطار تخصصه من هذه التخصصات الدقيقة في الحقل السيميائي، قراءة وتمثل الإنجازات العلمية المحققة قبل وبعد وفاة (أ. ج. غريماس) وفي حدود معرفتي المتواضعة، يبدو الإلمام بهذه المسائل محدودا جدا، لا يتجاوز المستوى الفردي، إذ لم يستطع الباحثون العرب -بحكم ظروف القاهرة- تعبئة كفاءاتهم في سبيل تحقيق فعل علمي ينضوي تحت تحزّ جماعي وتأسيس خطاب علمي جدير بهذا الاسم»

في غياب الفرق البحثية الرسمية والتواصل العلمي المنشود، ظلت جهود الباحثين تبذل على المستوى الفردي فقط. ويحصل التبادل العلمي بينهم كلما أُتيح لهم لقاء ظرفي يكون مناسبة لمناقشة بعض القضايا العلمية الوثيقة الصلة باهتماماتهم البحثية؛ وعليه، فإنه لم يتم التعامل مع هذه الإنجازات إلا بالقدر القليل الذي لا يسمح بالإحاطة الشاملة بتفاصيل البحث السيميائي المعاصر. وحتى الدراسات الموجودة تكاد تقتصر على سيميائية الجيل الأول. من هذه الزاوية، جاءت الانتقادات التي وجهها بعض النقاد العرب للسيميائية (وهي انتقادات أقرب إلى الأحكام القيمية من النقد العلمي المؤسس) مفتقدة إلى قراءة واسعة ومتمثلة لأطر المفهومية للنظرية السيميائية. يعطي هذا النوع من القراءات صورة ممیعة، مشوهة ومضللة للقارئ العربي الذي يظل بحكم انقطاعه عما يجري هناك في حيرة

من أمر هذه الخطابات التي يدعي أصحابها اليوم شيئا ويتبنون غدا شيئا آخر دون سابق إنذار.

لهذه الاعتبارات، يصعب علينا استشراف المستقبل في هذا النوع من الدراسات، ومع ذلك، سنحاول تقديم قراءة جزئية لمستقبل لا نستطيع أن ندرك خفاياه ونتبين آفاقه إلا إذا فهمنا ما يجري في عالمنا اليوم، ونظرنا عن كثب في التراكمات المعرفية، وما النتائج المحققة في الدراسات السيميائية العربية الراهنة، وما الحلول التي يمكن أن نصوغها بخصوص المشاكل البحثية العالقة في الساحة النقدية العربية. وقبل أن نعرض لهذه المسائل يجدر بنا أن نقدم بعض التوضيحات بخصوص (السيميائية - مدرسة باريس) والتحويلات الجذرية التي عرفتتها بعد عام 1992. ستمكنا هذه الوقفة من إدراك بعض التوجهات المنهجية العامة التي آل إليها البحث السيميائي المعاصر، والنظر في إمكانية الإفادة من هذه الإضاءات لفحص ما يجري في الدراسات العربية وتقويم الحركة السيميائية الناشئة في الخطاب النقدي، وصياغة بعض عناصر الإجابة على المسائل المطروحة على الصعيدين النظري والتطبيقي

1. واقع وآفاق السيميائية في الفكر الأوروبي

ينبغي أن نسلم في البداية بأن تحرّي المعرفة يظل دائما معلقا ما دام المسار البحثي في جميع المعارف الإنسانية يحمل في مظهره أسباب الانقطاع والاستمرار. وترتفع مسألة التعليق في وجودها إلى طبيعة العلم الذي يحيا بتجاوز الأخطاء لا بتثبيتها. من هنا، يؤكد (جاك جينيناسكا)⁽¹⁾ أن الإرث (الغريماسي) (نسبة إلى غريماس) لا يتمثل في إنجازات السيميائية بقدر ما يكمن في ضرورة مدّ المشروع السيميائي بما يتجاوز المعرفة الثابتة⁽¹⁾. ويعد الإرث الغريماسي ملكا لأولئك الذين يمارسون السيميائية مقتنعين في ذلك بأن هذه الممارسة تتصوي تحت مشروع يظل دائما

(1) Jacques Geninaska, Et maintenant? in Mauricio Beuchot Pierre, Maria Pia Pozzato Jacques et autres, Lire greimas, PULIM, Limoges, 1997 .

مفتوحا وتكون فيه السلطة للفكر. على أساس هذه القناعة، لُرسى أ. ج. غريماس قواعد البحث السيميائي الذي نلمس توجهاته العامة في إعادة قراءته للمشروع البروبي (مشروع فلاديمير بروب) من منطلقات هذه القواعد وصياغته الجديدة لمجموعة من القضايا المرتبطة بتعريف الوظيفة، ومستويات تنظيم السردية، والرسم السردى بوصفه بديلا للتتابع الوظيفي⁽¹⁾.

وتوجت جهوده بنشر كتاب موسوم بـ السيميائية/ المعجم المعقلن لنظرية الكلام (1979) ألفه مع الباحث جوزيف كورتيس. وقد أثار هذا الكتاب في الوقت نفسه رضا الباحثين (الذين لاحظوا أن كل المفاهيم التي استعملوها ثبتت أخيرا وسميت بشكل نهائي)، وسخطهم لأن الشكل الكلاسيكي للنظرية التي استقرت على هذا النحو وجاءت في الاستمرارية الدقيقة مع كل الاقتراحات المتضمنة في الدلالية البنيوية لا تتناسب التطور الحقيقي للبحث. لقد كان غريماس يتوقع هذه الردود. ولئن كان يدرك أن تقديم القاموس بالشكل الذي ارتضاه يحيط بشكل محدود بالبحوث الجارية، فإنه "مقتنع بأن المشروع العلمي لا يعني شيئا إلا إذا تحول إلى تحرر جماعي"⁽²⁾. من منطلقات هذه القناعة، ينظر إلى المصطلحية المعتمدة في القاموس على أنها تعبير مؤقت لانشغالات علمية. ويعترف غريماس في نهاية هذه المقدمة بوجود فجوات في بحثه، لعل أهمها تلك المتعلقة بالمكانة المخصصة للمنطق الأنجلو ساكسوني. وإذا كانت التفاتته غير كافية، فلأن إشكالية أفعال الكلام متماثلة مع نظرية التلفظ التي صيغت تحت تأثير أفكار أوستين J. L. Austin وبنفنيست E. Benveniste وطورت فيما بعد كقسم مدمج في السيميائية العامة. ولأن الإسهامات المنطقية الخالصة، وهذا فيما يبدو السبب الجوهرى، لا يمكن أن

(1) سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، دار تيمبل للطباعة والنشر، مراكش، المغرب، 1994، ص. 21-23. انظر:

- A. j. Greimas, Les acquis et les projets in J. Courtés, Introduction à la sémiotique narrative et discursive, HU, Paris, 1976, p. 6/7.

(2) A. J. Greimas , J. Courtés, Sémiotique /Dictionnaire raisonné de la théorie du langage , HU, Paris , 1979 , p III.

تدرج إلا في إطار تقديم كامل نسبيا للكلام المنطوق، مما يجعلها تؤثر على الاقتصاد العام للمؤلف. وتتسحب هذه الملاحظة أيضا على التداولية الأمريكية التي يتوافق حقل اهتماماتها جزئيا مع الكفاءة الجهادية التي طورها غريماس في قاموسه. ومن الواضح أن أسباب تردده بينة، فهو بين اختياريين: إما أن تدخل إشكاليته في عداد نظرية الكلام، وبالتالي تكون ترجمة هذه الإسهامات في شكل سيميائي محصلة طبيعية، وإما أن تعد السيميائية من المنظور التداولي ملحقا غير سيميائي للسيميائية تستعمل فيه مقولات متافرة - ذات طابع سيكولوجي أو سوسيولوجي -، وعليه، لا يمكن أن تطالب بمكانة في معجم السيميائية. إن هذه المسألة التي تدرج في إطار الإشكالية العامة للتلفظ والتي تقف وراءها بحوث إ. بنفنيست، سيثيرها أ. ج. غريماس في أثناء دراسته لمادة العامل في المعجم. ونعتبر الشروحات التي قدمها⁽¹⁾ بخصوص هذه المادة وما تعلق بمسألة التلفظ énonciation واللافظ énonciateur والملفوظ له énonciateur والتداولية pragmatique بمثابة المحاور الكبرى للبحث السيميائي، نوعا من التوقع لما ستؤول إليه السيميائية مستقبلا، وبالتالي ستكون مسألة التلفظ بؤرة للتطور السيميائي وتحولا إيبستيمولوجيا بخصوص التعامل مع المواضيع السيميائية.

من هذه المنطلقات تأتي بحوث ج. كورتيس J. Courtés في التلفظ⁽²⁾ وج. فونتانييل J. Fontanille⁽³⁾ في النقود التي وجهها لدراسات غريماس حول المربع السيميائي، المسار التوليدي والسردية، في الامتداد الطبيعي للبرنامج العام الذي سطره أ. ج. غريماس في المعجم.

(1) يميز غريماس في صلب الخطاب الملفوظ بين: أ. عوامل التبليغ (أو التلفظ) وهم: الراوي والمروي له والمخاطب والمخاطب (الذين يساهمون في بنية التخاطب م هي الحوار) ب. عوامل السرد (أو الملفوظ): الفاعل/الموضوع، المرسل/المرسل إليه؛ في هذا الموضوع، يقابل بين العوامل التركيبية (المسجلة في برنامج سردي معطى) كفاعل الحالة وفاعل الفعل، والعوامل الوظيفية (أو التنظيمية) التي تضطلع بأدوار عاملية في مسار سردي محدد (المعجم، ص. 3-4).

(2) J. Courtés, L'énonciation comme acte sémiotique, Nouveaux actes sémiotiques, Pulim, Université de Limoges, n°58-59, 1998.

(3) J. Fontanille, Sémiotique et littérature / Essais de méthode, PUF, Paris, 1999 .

2-1 التطورات الراهنة في النظرية السيميائية.

تقف وراء التطورات الراهنة للنظرية السيميائية مجموعة من الانشغالات العلمية التي تقضي بضرورة فهم النشاط اللغوي في علاقته بالموضوعات السيميائية التي يعبئها الفاعل المتكلم لإقامة التواصل مع المتلقي. على هذا الأساس، تصف التداولية استعمال المتكلمين للأدلة اللغوية بهدف التأثير في الآخرين⁽¹⁾ وتحقيق مقاصدهم التواصلية.

في إطار هذا التوجه العام للتداولية، تعددت زوايا النظر واختلف أصحابها في مسألة الاقتراب من الفعل الكلامي، فنزح فريق منهم إلى المنظور الفلسفي وإعطاء الأولوية للأثار التي يحدثها اللفظ في الملفوظ له دون أن يهتم في ذلك بالارتقاء إلى الاستراتيجيات التي يسخرها اللفظ. في هذا الاتجاه، يميز أوستين بين الملفوظات التقريرية والملفوظات الإنشائية. تسمى العبارة إنشائية إذا كانت مسخرة لوصف حدث. وتكون تقريرية في حالتين: أ) إنها تصف فعل المتكلم ب) يعني تفظه تنفيذ هذا الفعل. في "ينبغي أن تنظف البيت"، فإني لا أعبر فقط عن رأيي في ما هو مريح من أمر التنظيف للمخاطب، ولكني في الوقت نفسه أصدر أمراً. في امتداد هذه الطروحات، يذهب ج. ر. سيرل J. A. Searle إلى أن الوظيفة الأولى والمباشرة للفعل الكلامي هي تغيير وضعية المتكلمين، من هنا، فإنه يؤكد على نتائج فعل الكلام، وفي قدرته على خلق وضعية جديدة.

ويقترح غريس Grice. H. P، في اتجاه آخر، مبدأ عاماً يكون فاعلاً في استقلاليته عن فعل الكلام، ويتحكم في التبليغ ويحكم إلى هذا المبدأ السلوك العقلاني للفرد الذي يؤسس مبدأ التعاون في التبادل التفاعلي حول مقاصد المساهمين. ونلاحظ في تحليله للمدونة الآتية:

- أنزل سلة النفايات، من فضلك.

(1) Oswald Ducrot, Tzvetan Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Seuil, Points, Paris, 1972, pp. 423. 430.

- أحب أن تنزل سلة النفايات.
- هل تستطيع أن تنزل سلة النفايات؟
- هل ترغب في إنزال سلة النفايات؟
- هل أنزلت سلة النفايات؟⁽¹⁾

أنه عقد أهمية قصوى إلى متلقي الرسالة وكل الممكنات الدلالية التي يمكن أن يتوقف عندها في أثناء التأويل. وقد وضع الباحث هذه المدونات تحت مجهر الحكم maximes التي تعتبر كمصفاء يكمن دورها في ضبط القنوات التواصلية الدالة. وتبعا لهذا التوجه المنهجي، يظل منتج الملفوظ في لحظة ترقب لرد فعل المتلقي. وقد حاول الباحث تقديم مجموعة من الافتراضات من موقع الأم وبوصفها لافظة وبنى عليها بعض التأويلات التي قد تتأى عن المرامي الدلالية للجملة الموضوعية قيد الدرس.

في إطار هذه التوجهات العامة، وانطلاقا من التمييز الذي وضعه غريماس-استنادا إلى طروحات إ. بنفنيست اللسانية - بين عوامل التلفظ وعوامل السرد المحددة سلفا والذي ينضوي تحت السيميائية الكلاسيكية التي أولت في السبعينيات والثمانينيات أهمية خاصة إلى سمات التلفظ المسومة في الملفوظ، أعاد جوزيف كورتيس قراءة الإرث السيميائي وفق آليات جديدة تنظر إلى الموضوع السيميائي على أنه محصلة لعملية التلفظ التي ترتبها في وجودها إلى فاعل التلفظ الذي يغطي وضعيتين عامليتين: اللفظ والملفوظ له⁽²⁾. حتى نوضح هذه المسألة يجدر بنا أن نقدم بعض الإضاءات المنهجية بخصوص المقاربة المنهجية المسخرة لفحص الموضوعات السيميائية قبل وبعد 1992.

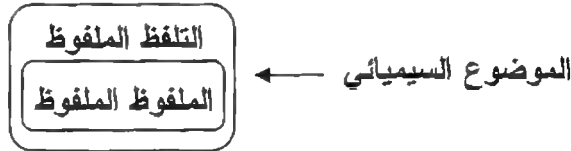
(1) Roland Posner, Signification et usage des connecteurs propositionnels dans les langues naturelles , Actes sémiotiques-Documents, n°56, Besançon , 1984 , p. 11.

(2) A. J. Greimas , J. Courtés , Sémiotique / Dictionnaire raisonné de la théorie du langage , HU, Paris , 1979 , p. 125.

1-2-1: التوجهات السيميائية قبل 1992

1-2-1-1: التوليفة الأولى: من الملفوظ إلى التلفظ [1991]

إن المتتبع للحركة السيميائية، وتحديدًا مدرسة باريس، يلحظ من دون مشقة أن الآليات المنهجية كانت معبأة لدراسة الموضوعات السيميائية المدركة في استقلاليتها عن الجهاز التلفظي. على هذا الأساس، جاء التمييز المبني على طروحات إ. بنفنيست، بين المروي (الملفوظ الملفوظ في المصطلحية السيميائية) والطريقة التي يروي بها المروي (ج. جينيت) (التلفظ الملفوظ). ضمن هذا الإطار، كان السيميائي مدعواً، وهو إزاء نص معطى، أن يستنبط تنظيمه الداخلي، ويوضح وضعه الملفوظ له فيما يعرض عليه. ولئن كان السيميائيون يدركون أن معنى الجملة أو الخطاب لا يمكن أن يحصر إلا في إطار تلفظي معطى، فإن ج. كورتيس يعترف في هذا الصدد بأنه كان يتم في الغالب التعامل مع الملفوظ كما لو أنه يملك دلالة مستقلة (عن) أو سابقة (على) تلك المتعلقة بالتلفظ. مع العلم أن الملفوظ محصلة للتلفظ. ومن هنا، فإن الخطأ التي رسمها كورتيس توضح جيداً كيف أن السيميائية لم تكن تنزع إلى الفعل التلفظي بل كانت تتموضع من جهة محصلته (الموضوع السيميائي)⁽¹⁾:



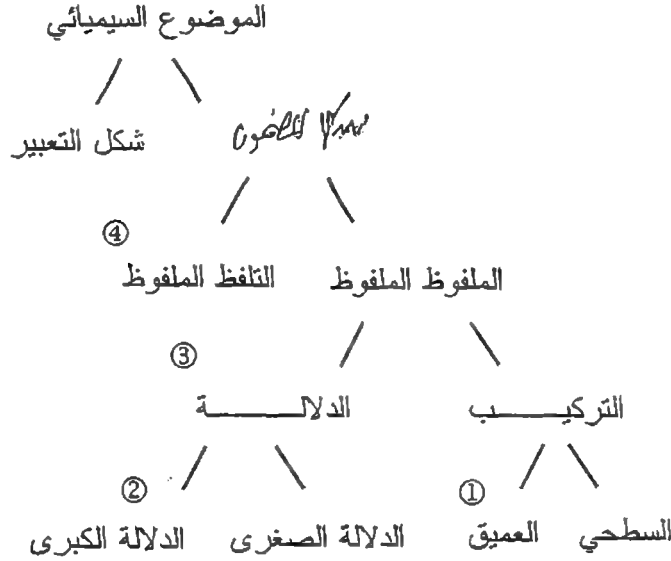
يبرز هذا الطرح الرؤية المنهجية التي كانت تقف وراء البرنامج المسطر للتصدي للملفوظ الملفوظ الذي يشكل مركز الاهتمام في المقام الأول ويليهِ التلفظ الملفوظ الذي يختتم به المسار التوليدي لدلالة محددة. من هنا جاء كتاب كورتيس: من الملفوظ إلى التلفظ.

(1) J. Courtès, L'énonciation comme acte sémiotique, Nouveaux actes sémiotiques, Pulim, Université de Limoges, n°58-59, 1998, p. 12.

2-2-1 التوجهات السيميائية بعد 1992

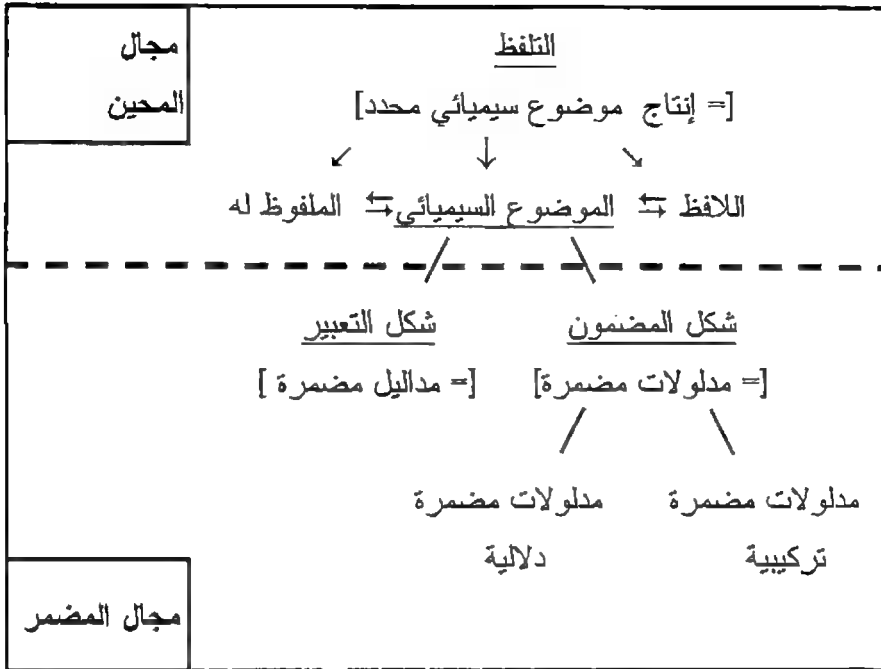
1-2-2-1: التوليفة الثانية: من التلفظ إلى الملفوظ [1995]

يعلن جوزيف كورنيس عن رغبته في قلب معنى المسار: من التلفظ إلى الملفوظ الذي يأخذ الشكل الآتي:



كان التوزيع في هذه الخطاطة سائدا في بداية التسعينيات. ويتفرع فيه شكل المضمون إلى الملفوظ الملفوظ والتلفظ الملفوظ. ويبدو هذا التوزيع في الوضع الراهن للبحث غير مقبول وذلك لاعتبارين. أولهما: إن العرض العقلاني للمسار القائد من التلفظ إلى الملفوظ يعمل على تجلية الدلالة. ثانيهما: يدخل صعيد التعبير في عداد المكون التلفظي على نحو ما نلاحظ ذلك في الخطاطة الآتية المدرجة في التوليفة الثالثة⁽¹⁾.

(1) المرجع السابق، ص. 15



في هذه الخطاطة، يفصل الخط الأفقي المتقطع المجال العلوي المحين [المرتبط بالتلفظ] عن المجال السفلي المضمّر [الذي يشمل كل التنويعات الثقافية الممكنة وذلك تبعا لمختلف أنواع الكلام المسخرة]. ويلاحظ كورتيس أنه لهذا السبب تعمل الخطاطة على تجلية الفعل التلفظي بوصفه "تحيينا" مسخرا لإنتاج موضوع سيميائي مفترض. وبمجرد أن يتنقل الموضوع (بين الالفاظ والملفوظ له)، يكون لتلفظ متوافقا مع المرحلة السيميائية المسماة "تحقيقا": فتنصب الدلالة (وهي دائما غير قارة) التي يكون على أساسها الالفاظ والملفوظ له متفقين أو موجودين على الأقل في نفس الخط الدلالي. ويلاحظ قارئ هذه الخطاطة أن تجزيء الموضوع سيميائي إلى شكل المضمون وشكل التعبير يقع في مستوى مضمّر يفترضه منتقل رغضي بذلك إلى حكايات مختلفة. في هذا الموقع بالذات تلقى كل المتغيرات

التي لا تكون محصورة في ثقافة بعينها ولكنها تمتد من ثقافة إلى أخرى ووفقا للاختيارات الموجودة في كل واحدة منها والتي يرتهن النظام المضمر إلى وجودها. وتكون، في كل هذا، الكلمة الأخيرة للتلفظ الذي يحتل الصدارة في توجيه الحكاية في هذا الاتجاه أو ذاك ونصب استراتيجيته الخاصة.

3-1 المربع السيميائي، المسار التوليدي، السردية⁽¹⁾

حتى نفهم مشروع غريماس في بعض جزئياته الخاصة بتحليل موضوع سيميائي معطى، نتصور نهرا في حقل: قد يثير هذا المنظر مقاربات تحليلية متنوعة: يمكن أن نلاحظ هذا النهر ونكتفي بالقول: "هذا نهر". يمكن أن نقرب من ضفة النهر ونكشف عن المجاري التي يتشكل منها، فنلاحظ بقايا من ماء ملون أو ملوث. يمكن أن نكتف جبهودنا لدرك الخطوط التي ترسم هذه المجاري المتنوعة واضطراباتها (الخ). يمكن أن نأخذ عينة من هذا الماء ونخضعها للتحليل في المخبر، فنكتشف إلى جانب الماء الخالص موادا أخرى. وقد تمتد معرفتنا لهذا النهر إلى الحد الذي نقر فيه مثلا أن ماء هذا النهر خليط من ماء وماء الجافيل وحمض كبريت. كما يمكن أن نكتفي، بقطع النظر عن هذه المكونات المادية، بمكونات أولية أخرى كذرات الأوكسجين والهيدروجين. وحتى نوضح جيدا هذه المسألة، نقدم مثلا آخر كثيرا ما كان يضربه أ. ج. غريماس: ندرك العطر بحاسة الشم، ولكن إذا أردنا أن نخبره، ينبغي أن نغادر صعيد الإدراك وننفذ إلى الصياغة الكيميائية، وقس على ذلك الكلام: ينبغي أن نغادر صعيد التجلي وننفذ إلى البنية الأولية التي يستقر عليها الكلام إبه النموذج الذي عرف باسم المربع السيميائي⁽²⁾.

(1) إن المسائل المثارة في هذا المبحث يلقيها القارئ في:

- Jacques Fontanille, Sémiotique et littérature, Essai de méthode, PUF, Paris, 1999, pp. 3-9 .

(2) تقديم ج. كلود كوكي في: ج. ك. كوكي، السيميائية مدرسة باريس، ترجمة رشيد بن مالك، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003، ص. 14.

1-3-1 المربع السيميائي:

يقدم ج. فونتاني بعض الاعتراضات على القواعد الأساسية التي تنهض عليها النظرية السيميائية الكلاسيكية: المربع السيميائي، المسار التوليدي، والسردية. وهي إضاءات يسعى من خلالها الباحث إلى الإحاطة بمكان الخل في اشتغال تمقولات الدلالية داخل المربع السيميائي وانعكاساته على المسار السردية والمردية. وهو يعتبر أن المربع السيميائي لا يعمل على إبراز الطريقة التي بها تتخذ المقولة شكلا ولا الطريقة التي يكون بها كل خطاب قادرا على خلق وإعادة تنظيم مقولاته الخاصة. إن بناء مربع سيميائي في أثناء تحليل نص يفترض أننا نراء مقولة قارة، منتسبة ويكون شكلها مكتملا. وحتى يتم إبراز الطريقة التي تترك بها مجموعة من الصور، وتتقي وتعد إعدادا بهدف تنظيمها في شكل مقولات، ينبغي اللجوء إلى مناهج ونماذج أخرى.

1-3-1-1 البديل المنهجي لهذا الاعتراض:

إذا فحصنا مثلا اشتغال تناظر في نص، يمكن أن نعتبره بكل بساطة تكرارا لبعضون دلالي. وبهذه الصفة يمكن أن يقوم مقام التعليم القرائية؛ وهذا يعني تبني وجهة نظر الخطاب - الملفوظ: ولو افترضنا أن المعنى مكتمل، فإننا نستطيع إعادة بثه مباشرة ومن منطلقات التناظرات المهيمنة في الخطاب، وتكون كل واحدة فترة على الانتظام بالارتكاز على المربع السيميائي. ويمكن أن نهتم أيضا بالطريقة التي يعد بها الخطاب تناظراته الخاصة، كيف يتقدم تكرار المضامين وكيف تنتصب بين الصور المختلفة العلاقة التي تسمح في ذلك بالتعرف على قرابة دلالية؛ تأسيسا على هذا، يمكن أن نفحص الطريقة التي يصل بها النص الصور ويفصلها، يضمها وينفكها وذلك في سبيل الوصول إلى التناظرات التي تتشكل في الحركة نفسها تنظف. من هنا، ينبغي تبني وجهة نظر الخطاب في اشتغاله.

2-3-1 المسار التوليدي

1-3-2-1 الإطار النظري للمسار التوليدي

يعد المسار التوليدي نموذجاً يحكم بشكل تراتبي المقولات المشغلة في الخطاب وذلك انطلاقاً من تلك الأكثر تجريداً، البنيات الأولية إلى الأكثر تجسيدا، البنيات الصورية للخطاب.

وعليه، فإنه يسمح بموضعة مجموعة من البنيات الجاهزة في أثناء التلفظ، وفي علاقة بعضها ببعض؛ فهو بهذا المعنى ظل "للاذكرة" السيميائية لفاعل التلفظ في اللحظة التي يلفظ فيها. مثلاً، إن مقولة [حياة/ موت] المنتمية إلى البنيات الدلالية الأولية تفصل إلى [وصلة / فصلة] في البنيات السردية والعاملية، وذلك بفضل تعالق، في صلب المقولة الأولى، فاعل عامل قادر أن يدخل في وصلة أو فصلة ب/عن عامل موضوع يكون مضمونه "الحياة". وتكون، بعد ذلك، ملفوظات الصلة مجمعة لتشكل برامج سردية تخص، في المثال أعلاه، برامج الاحتفاظ، الفقدان، والتعويض التي تنتمي إلى البنيات السردية الثيمية. وتعتبر هذه الأخيرة في النهاية "صورية" عندما تتلقى تحديدات إدراكية، فضائية، زمنية وممثلة: يمكن أن تظهر، مثلاً، المقولة الأولية [حياة/ موت]، في نهاية مسارها، تحت أنواع مرئية للضوء والظلام وتظهر أيضاً، من خلال التنسيق مع التغيرات الزمنية، تحت شكل النهار والليل، أو الصيف والشتاء. إن هذا التوضيح المبسط الذي قدمه جاك فونتايني يعمل على توصيف السيرة التوليدية "الصاعدة" الخاصة ببناء الدلالة؛ وتكون السيرة "النازلة" هي أيضاً متوقعة لأنها تخص التحليل الملموس الذي ينطلق من الصور الملاحظة مباشرة لينتهي إلى المقولات المجردة المضمرة. إن المسار التوليدي هو إعادة تشكيل دينامية للطريقة التي بنيت بها الدلالة وتكثفت وفق مسار يقود من البسيط إلى المركب ومن المجرد إلى المجدد (الصوري) حيث يلامس الدلائل التي تتضمن التجليات اللسانية وغير اللسانية. ويمكن أن نميز بين مرحلتين يعبر من خلالها إنتاج دلالة الموضوع السيميائي ونعني بذلك التشكيل التدرجي للدلالة: البنيات السيميوسردية والبنيات الخطابية. إذا افترضنا في البداية أن كل منتج يتضمن إنتاجاً، فإننا نسلم أيضاً بأن كل ملفوظ يفترض تلفظاً. وعليه، فإن التلفظ

يعني أن يتبنى الفاعل الالفاظ الإمكانيات التي ترخر بها اللغة أو نظام الدلالة الذي يستعمله. من هذه المنطقات، يحدد الالفاظ (الفردية أو الجماعية) على أنه هيئة إنتاج يفترضها الملفوظ. وإذا أردنا أن نحدد تمييزا بين البنيات السيميوسردية والبنيات الخطابية، فإن ذلك لن يتم انطلاقا من التلفظ. تتضمن البنيات السيميوسردية مجموعة من الإمكانيات الموجودة تحت تصرفه؛ إنها الذخيرة التي تشتمل على القيم والبرامج التي يمتح منها الالفاظ لرواية قصته. وتتصب البنيات الخطابية على هذه العتبة لتتقن ما يفرضه المقام وتنظم هذه الإمكانيات. من هنا يكون اختيار هذا العالم المرجعي أو ذاك. وعلى هذا الأساس أيضا يتم تسيير الأزمنة والفضاءات وتوزيع الأدوار. ويمكن أن نقول أن البنيات السيميوسردية تعرض أقصى ما يوجد في التجريد وأهم ما تزخر به في سبيل تغذية دلالة القصة. وتناسب البنيات الخطابية الإخراج والتوزيع. ينبغي أن نميز في هذا السياق بين مستويين في البنيات السيميوسردية. في المستوى الأساسي، تنتصب الاختلافات التي تعمل على توليد دلالة والقواعد التي ترتبها إليها المسارات بين الوضعيات المحددة. إن المربع السيميائي هو تمثيل لما يجري في هذا المستوى. وفي مستوى أكثر سطحية، فإن الوضعيات تتحول إلى قيم يتحرى عنها الفواعل، وتتحول المسارات إلى برامج سردية.

2-2-3-1 الاعتراضات المنهجية على المسار التوليدي

إذا تتبعنا المسار التوليدي في الاتجاه الصاعد أو النازل، فإنه لا يوضح لنا كيف يشتغل التلفظ، كيف يختار المقولات ويرتبها ويعدها ويحرفها أو يخترعها.

2-2-3-2 البديل المنهجي:

ولتحقيق هذا، ينبغي أن نلتزم أدوات أخرى، ونقصد بذلك معرفة الإشارة لتنظية⁽¹⁾ praxis énonciative. إن النظر إلى التلفظ على أنه إشارية يعني الإقرار بأن الأشكال الخطابية المهيأة انطلاقا من المقولات المنظمة في المسار

(1) تنظي الإشارة التلفظية مجموع العمليات التي من خلالها يستدعي، كل تلفظ خصوصي، ويتقن، ويحرك ويحول، يخترع أو يعد اختراع النصوص، الأشكال، الموتيفات، وصفة عامة الكيانات السيميائية. انظر:

- J. Fontanille, Op, p. 131.

التوليدي يمكن أن تظهر من وجهة نظر الخطاب في اشتغاله كأشكال خاصة به (. . .). وإذا أردنا أن نبرز الخطاب الأدبي في اشتغاله، وليس فقط في انفصال بنياته الشكلية عن التلفظ، ينبغي أن تنصدر وجهة نظر الإشارية التلغظية المسار التوليدي.

3-3-1 السردية

يحدد غريماس السردية على أنها متتالية من الحالات المسبوقة و/أو المتبوعة بتحويلات.

1-3-3-1 الاعتراضات المنهجية على هذا التحديد.

إن المتتبع للحركة السيميائية التابعة لمدرسة باريس يلحظ، أن المعجم المعقلن لنظرية الكلام لم يتضمن مدخلا خاصا بالصيرورة. وقد لاحظ بيرنار بوتّي سكوت أ. ج. غريماس وج. كورتيس عن هذه المسألة. وتعد الدراسة التي أعدها بوتّي في 1984 من البحوث المتميزة التي قام بها في سبيل استجلاء بعض القضايا النظرية التي تمس الصعيد السطحي للنظرية السيميائية. ولتحقيق هذه البغية، انطلق الباحث من فرضية تطويرية طبيعية مبنية أصلا في حقل لساني للتأكيد على إمكانية نقلها إلى حقل سيميائي لدراسة تحولات الأنظمة السيميائية. بهذه القفزة النوعية، يقدم بوتّي قراءة جديدة للإرث الغريماسي يثبت من خلالها أن الصيرورة تعد قاعدة ضرورية لكل برنامج سردي، وأن الفاعل المنفذ الذي يحول الحالة قصد الدخول في وصلة بموضوع القيمة ليس في نهاية الأمر إلا سببا في التغيير⁽¹⁾.

(1) ب. بوتّي، السيميائية : الصيرورة غير مستحبة /الجلب الأبيض يفتت، ترجمة رشيد بن مالك في 1

- البنية السردية في النظرية السيميائية، دار الحكمة، الجزائر، 2000، ص. 44-51. و انظر أيضا :

- Bernard Pottier, Un mal-aimé de la sémiotique :le devenir in Exigences et perspectives de la sémiotique. Recueil d'hommage pour A. J. Greimas,H. G. ruprecht éd,Amsterdam/Philadelphie,John Benjamins,1985,2 vol., pp. 499. 503 .

وقد تبني هذه المسألة أيضا ج. كلود كوكي عندما أشار إلى أنه: "كان ينبغي النظر إلى العوامل في صيرورتهم دون الاكتفاء بالتحويل البسيط والميكانيكي للحالات"(1).

نلاحظ في نهاية هذا المبحث أن الدراسات السيميائية في الفكر الأوروبي المعاصر حققت نجاحا كبيرا على امتداد نصف قرن على وجه التقريب شهد مناقشات حادة بخصوص المكانة التي ينبغي أن يحتلها العلم الذي يتخذ المعنى موضوعا لدراسته. واستطاعت هذه المناقشات المؤسسة والمبنية على تحر جماعي أن تحرك الدوائر العلمية باستقطابها باحثين من مختلف الحقول المعرفية تمكنوا من خلال استثمار معارفهم من تأسيس تخصصات تدور في فلك السيميائية الناشئة "التي تحتاج إلى باحثين يعرفون كيف يتجنبون الآلية الفكرية ويجددون"(2).

استنادا إلى هذه القراءة الجزئية للنظرية السيميائية، نلاحظ أن السيميائية مرت عبر مخاض عسير، وأنها المحصلة الطبيعية لتجارب عديدة في البحث المتواصل؛ إذ تعبر كل تجربة عن مسار علمي لا تحقق فيه قيم إلا ويعاد النظر في قيم أخرى عبر التحري عن البديل للإشكاليات المطروحة وذلك من خلال الحوار المؤسس والبحوث الجماعية المتواصلة والقناعات العلمية الراسخة المبنية على ضرورة التخلي عن مسار علمي معطى كلما تبين أنه يفتقر إلى الحجة والبرهان.

2 واقع وآفاق السيميائية في العالم العربي

1- 2 الحركة السيميائية في الدراسات العربية المعاصرة

لا نستطيع أن نقدم قراءة في مستقبل السيميائية في العالم العربي وعناصر إجابة استشرافية للمستقبل ما لم نعاين واقع البحث في الدراسات السيميائية الراهنة في ضوء المستجدات في الفكر الأوروبي المعاصر الذي حقق قفزة نوعية على

(1) تقديم ج. كلود كوكي في: ج. ك. كوكي، السيميائية مدرسة باريس، ترجمة رشيد بن مالك، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003، ص. 16.

(2) المرجع نفسه، ص. 17.

جميع الأصعدة على نحو ما وضعنا ذلك آنفا. ستقتصر دراستنا للحركة الناشئة في النقد العربي المعاصر على بعض العينات المأخوذة من: الجزائر، سوريا، المغرب، وتونس. ولئن لاحظ القارئ افتقار البحث إلى الطابع التمثيلي، فإن لهذه المشكلة اعتبارات عديدة. أولها: انقطاع التواصل العلمي بين الباحثين العرب وفي أغلب الأحيان داخل البلد الواحد. وكان لهذا الوضع انعكاسات سلبية، حيث كثرت البحوث الفردية التي تعددت معها الخطابات النقدية واختلقت في مقاصدها العلمية. وأضحينا إزاء ترسانة من المصطلحات تعبرها سيميائيات لا يتبين القارئ حدودها ولا معالمها، وهي في جميع الحالات لا ترقى لأن تمثل تراكمات تقرأ كأحسن ما تكون القراءة. ومع ذلك، استطاعت بعض البحوث في مختلف البلدان العربية أن ترقى بالبحث إلى أعلى درجة من التفكير والتمثل الواعي والهادف إلى بناء استراتيجية بحثية تعمل على إفراز قيم علمية ستكون فاعلة لا شك في المسار الإيجابي الذي سيؤول إليه البحث السيميائي مستقبلا. كذلك فإنّ اقتصرنا على بعض العينات لا يقلل من شأن بحوث عربية أخرى ظهرت في مجالات مهمة (الفكر العربي المعاصر، فصول، علم النص، علامات، بحوث سيميائية...). إن هذا البحث المختصر لا يتحمل الإحاطة الشاملة لكل ما كتب في الحقل السيميائي. اقتصرنا فقط على العينة الموضوعية قيد الدرس لأن أصحابها يلتقون. نظريا وتطبيقيا في التوجهات المنهجية العامة للنظرية السيميائية مع تفاوت في المصطلحية المعتمدة وفي الأولوية التي يعطيها كل واحد منهم لهذا المستوى أو ذاك من النظرية. ويمكن أن نلاحظ أيضا أن هذه الدراسات بقيت وفيه للسيميائية الكلاسيكية ولم تأخذ في الحسبان التطورات الجذرية التي تصدرت المبحث الأول الذي يشتمل على الاعتراضات المنهجية التي سجلها تلامذة غريماس بخصوص المربع السيميائي، المسار التوليدي، السردية. وهذا لا ينقص من الجهود التي بذلها الباحثون العرب في وسط رافض لهذا التوجه. وقبل أن نبدأ بقراءة هذه البحوث، ينبغي أن نشير إلى الدراسة الموسومة بـ مدخل إلى الدراسات السيميائية بالمغرب/

محاولة تركيبية للباحث محسن أعمار⁽¹⁾ الذي حاول أن يقدم فكرة عن البحوث السيميائية في المغرب وعن الإنجازات العلمية الراهنة في الكتب المنشورة والدراسات الأكاديمية غير أنه لم يقتف أثر كل دراسة، بل اكتفى بتقديمها تقديمًا مختصرًا لا يلقي فيه القارئ الفروقات الجوهرية بين الباحث والآخر والتحولات العميقة التي يمكن أن نلمسها مثلًا من خلال قراءتنا لكتابات الأستاذ سعيد بنكراد من أول كتاب (مدخل إلى السيميائيات السردية) إلى آخر دراسة لم تنتشر بعد والموسومة بـ «ممكنات النص ومحدودية المنهج التي يعرض فيها قراءة نقدية في «طروحات المؤسسة لنظرية غريماس» وتكمن أهمية دراسة الباحث محسن أعمار في توجيه القارئ إلى الدراسات السيميائية الأساسية في المغرب وقواسمها المشتركة المتمثلة في:

- محاولة تقليص المسافة بين مفاهيم ومصطلحات مستمدة من سياقات ثقافية مغايرة للثقافة العربية، وبين معطيات النصوص الأدبية بحمولتها اللغوية والثقافية.

- ضبط المفاهيم، وتدقيق المصطلحات، وطرح النظرية قبل وضعها على محك التطبيق.

- نزوع الباحثين إلى اختيارات منهجية وطروحات نظرية تضع القارئ أمام ترسانة هائلة من المفاهيم والإجراءات، غير متداولة في لغته وفي سياقه الثقافي⁽²⁾.

ويمكن أن تسحب هذه القواسم على الدراسات السيميائية العربية عموماً.

ثانيها: أشرنا في بداية هذا البحث إلى أن الدراسات السيميائية شهدت إعادة نظر جذرية بدأت في بداية التسعينيات ثم لم تلبث أن توسعت. فمما كان من اللبديهيّات بالأمس أضحي في الحقبة الأخيرة موضع تساؤل وجدل؛ ولكنه جدل يهدف إلى صياغة حلول جديدة على نحو ما رأينا ذلك عند كورتيس الذي تراجع عن إنجازات اعتبرناها من الثوابت في وقت مضى، ولم نتوقع أبداً أنه سيعيد فيها

(1) في: علامات، مجلة ثقافية محكمة، العدد 20 مكّاس / المغرب، 2003، ص. 99-109.

(2) نفسه، ص. 106.

النظر؛ فحصلت عملية قلب أعطت الصدارة في التحليل لمسألة التلفظ بوصفها فعلاً محدثاً وصانعاً للموضوع السيميائي. وإزاء هذه الهزات العنيفة التي حدثت على الصعيدين النظري والتطبيقي، وأفضت إلى ظهور سيميائية جديدة لجيل جديد، فإن الباحث العربي ظل يشتغل في ظروف خاصة ووفقاً لقيود تسيجه في إطار له خصوصياته. فهو مطالب بالتفكير على جبهات عديدة وينبغي أن ينجز في الوقت ذاته بحثاً نفترض أنها تغطي قراءة وتمثلاً، وترجمة، وتفكيراً كل ما أنجز من بحوث سيميائية قديمها وحديثها حول مختلف الممارسات الاجتماعية الدالة باللسان وغير اللسان مع مراعاة الخصوصيات المحلية في أثناء التطبيق على النصوص العربية. وهناك قناعات راسخة في الأذهان ما زالت تغذي الممارسة النقدية في كثير من المؤسسات التعليمية العربية؛ وعليه ينبغي أن تعرض الدراسة لحياة الشاعر وظروفه وأسلوبه الجزل وعاطفته الفياضة والجياشة، ليصدر بعد كل ذلك حكماً على عاطفته. هل هو صادق في تعبيره أم غير صادق؟ نضيف إلى هذا الوضع المتردي الاختيارات التي ينبغي أن يحسم فيها الباحث. في الوقت الذي خطا فيه البحث الأوروبي خطوات عملاقة، ما زلنا ضائعين في متاهات المصطلح. كل باحث يترجم حسب ما يحلو له. ولم تتوصل البحوث السيميائية إلى بلورة خطاب علمي لا يلقي فيه أصحابه مشقة في تمرير المعارف السيميائية. نستنتج من ذلك بعض الدراسات العربية الرائدة في هذا المجال التي حاول أصحابها تبسيط خطابهم إلى أدنى درجة ممكنة؛ همهم الوحيد في التعامل مع النظرية السيميائية أن يفهموا ما فيها من المعقد أحسن الفهم ويتمثلوه جيداً ليتسنى لهم بعد ذلك تبليغ ما فهموه وما تمثلوه في خطاب علمي يحكم سيطرته على المسائل المعقدة، يروضها ويبلغها أحسن تبليغ للقارئ.

ثالثها: إذا كانت الساحة النقدية قد عرفت تخلفاً كبيراً في مجال ترجمة البحوث السيميائية، فإن السؤال الذي يطرح نفسه بحدّة يتعلق بطبيعة النصوص الغزيرة التابعة لمدرسة باريس التي يقع عليها الاختيار والأولويات التي ينبغي أن تؤخذ في الحسبان في عملية انتقائها. هل نولي أهمية إلى النصوص الخاصة بتاريخ البحث

السيمياء أم نجح إلى ترجمة البحوث النظرية والتطبيقية التي ظهرت قبل وفاة أ. ج. غريماس. وإذا احتفظنا بهذه الفرضية، فإننا لا نشك في أن هذا الاختيار معترف حركة نشيطة في الترجمة وسيرافقها جدل كبير وقراءات نقدية في مضمون هذا النص. وهي قراءات ستتم في جميع الحالات بمنأى عن المستجدات البحثية التي ظهرت بعد وفاة غريماس، وعن الاعتراضات على المسائل النظرية المنظور إليها على أنها حقائق في سيميائية الجيل الأول. وإذا افترضنا أن الاعتراضات العربية على طروحات غريماس مؤسسة ولا يتسرب إليها الشك، فإنها ستشيد أيضا بمنأى عن اعتراضات السيميائيين أنفسهم على طروحاتهم على نحو ما حصل ذلك لغريماس وكورتيس. إن إثارتنا لهذه المسائل صادرة أساسا عن قناعتنا بأننا وصلنا إلى طريق مسدود. ولحل هذه الإشكاليات، وحتى نأخذ فكرة جلية عن الوضع الذي نحاول إليه البحث السيميائي، ينبغي أن نفكر مليا فيما كتب من بحوث وفي الجهود التي بذلت ولا زالت تبذل وفي الحلول التي يمكن من خلالها سد الثغرات ومعالجة نقاط القوة، بكل موضوعية في هذه البحوث، التي يمكن أن تشكل قاعدة أساسية لجمع شمل الباحثين من جهة واستشراف المستقبل من جهة ثانية. من منطلقات هذه القناعة، حاولنا في القسم الثاني من هذه الدراسة أن نقف عند عينات محدودة من بعض الدراسات السيميائية العربية لتقديم قراءة جزئية نعتبرها محاولة متواضعة لا تهدف بأية حال من الأحوال إلى صياغة حلول نهائية للإشكاليات المطروحة على الصعيدين النظري والتطبيقي. حاولنا أن نشير فقط بعض الأسئلة بخصوص القضايا التي بدت لنا أنها جديرة بالطرح والمساءلة ونصوغ، في الوقت نفسه وكلما دعت للضرورة إلى ذلك، في شكل اقتراحات متواضعة، بعض عناصر الإجابة بخصوص هذه القضية أو تلك.

1-1-2 إشكالية ترجمة المصطلح

إن استشراف مستقبل الدراسات السيميائية العربية المعاصرة يمر حتما عبر إدامة النظر في المصطلحية المعتمدة في الخطاب العلمي ومعالجة الوضع بدقة من خلال تأصيل المصطلح بالرجوع إلى المفهوم في اللغة الأصل الذي يحدده ويتحدد

عبره. وفضلنا أن نأخذ كعينة في هذا المبحث الترجمة التي وضعها خليل أحمد وأوديت بيتيت لكتاب Les enjeux de la sémiotique — أن إينو الذي ظهرت ترجمته في سنة 1980⁽¹⁾ ومعجم المصطلحات الأدبية المعاصرة للباحث سعيد علوش. وأول ملاحظة يمكن أن نقيدها على النص الأول الذي ظهر في وقت مبكر جدا تتمثل في افتقاده إلى الإحالة على المصطلحية اللسانية التي سبقته. وتكاد تنسحب هذه الملاحظة على نسبة غير قليلة من النصوص الراهنة التي جاءت ترجمتها في غياب الاستفادة من الجهود المبذولة في هذا النوع من البحوث. لا شك أن الجهود الفردية ستؤدي إلى تضارب الخطابات النقدية وتضليل القارئ في كثير من القضايا المتصلة بالأطر المفهومية للمصطلح في علاقاتها بالسياقات التي ترد فيها. ولتوضيح هذه القضايا نبدأ بالترجمة التي وضعها خليل أحمد وأوديت بيتيت لعنوان Les enjeux de la sémiotique والذي جاءت على النحو الآتي:

مراهنات دراسات الدلالات اللغوية

إذاً دققنا النظر في المفاهيم الممررة عبر هذا الملفوظ، فإننا نلاحظ أنها تغطي فقط جانباً من الجوانب التي تعنى بها السيميائية [الدلالات اللغوية]. يكفي أن ننقل هذا العنوان وكما جاءت ترجمته في اللغة الهدف لتتأكد من أنه ينزاح عن التعريف الذي وضع أصلاً للسيميائية:

Enjeux	↔	مراهنات
études	↔	دراسات
significations	↔	الدلالات
linguistiques	↔	اللغوية

ويقودنا هذا التوزيع الذي أردنا أن نتحقق من تطابقه مع المفاهيم التي يمكن أن يجسدها العنوان في اللغة الهدف إلى صياغة الملفوظ الآتي: Les enjeux des

(1) أن إينو، مراهنات دراسات الدلالات اللغوية، ترجمة أوديت بيتيت و خليل أحمد، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، 1980.

études des significations linguistiques. إن الترجمة بهذا الشكل تقصي دلالات المتجلية في غير اللسان من الاعتبارات السيميائية.

ويتضارب هذا التحديد مع التعريف الذي وضع للسيميائية ومجال اهتمامها. وهو مجال لا يتجاوز البحث في الدلالة من خلال تظاهراتها في الأشكال اللسانية وغير اللسانية التي تنتجها المجتمعات البشرية. وتعد هذه الأشكال الدالة بامتياز ممارسات اجتماعية⁽¹⁾. انطلاقا من هذا الحد، نقترح الترجمة الآتية: "مراهنات السيميائية". ويظل الإشكال قائما بخصوص ترجمة مصطلح carré sémiotique بـ مربع دلالي. ذلك أن الصفة دلالي توضع عموما كمقابل لـ sémantique. وقد قيدنا هذا التضارب أيضا في كتاب المصطلحات الأدبية المعاصرة⁽²⁾ الذي جاءت فيه الترجمات مضطربة في كثير من المواضع ومفصولة عن سياقاتها وغامضة في مفاهيمها لا يدرك القارئ قوتها الإجرائية ولا يفهم علة وجودها ولا الغاية من الحديث عنها [انظر على سبيل المثال لا الحصر المواد التالية: السيميائية (ص. 69)، المربع السيميائي (ص. 70)، البنيات السردية (ص. 65)، القيمة (ص. 105)]. وقد لمسنا من خلال قراءتنا لهذا المعجم تضاربا كبيرا في الترجمات. ونكتفي، فيما يلي، بذكر بعض العينات:

sémiotique	↗	أ. السيميائية
sémiotique	→	ب. السيميوتيكية ص. 71
analyse sémiotique	↘	ج. التحليل السيمي

إن قراءة سريعة في هذه العينة تقودنا إلى الإقرار بوجود ترجمات مختلفة (أ) (ترجمة) - ب (تعريب) - ج (ترجمة) للمصطلح الواحد. وإذا دققنا النظر في ج، فإن التحليل السيمي يحيل على مجموعة من الإجراءات التي تمس الحدود

(1) Jean – Marie Floch, Sémiotique, Marketing et communication, sous les signes, les stratégies, PUF, Paris, 2002, p. 4.

(2) سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، منشورات المكتبة، الدار البيضاء، 1984.

المعنوية للوحدات المعجمية. تلمس هذا الاقتراب المنيجي في التعريف الذي بناه غريماس على الحدود المعنوية للسيم⁽¹⁾ انطلاقاً من مبدأ الاختلاف الذي أرسى قواعده ف. دي سوسير واستعمله للدلالة على أن المفاهيم السيميائية تكون معرفة ليس بشكل إيجابي من مضمونها وإنما بشكل سلبي من علاقتها مع العناصر الأخرى للنظام. وقد تمثل غريماس هذا المبدأ داخل تصور جيد يقتضي فيه الاقتراب من المسألة الدلالية استيعاب الاختلافات المنتجة للمعنى، دون الاكتراث لطبيعتها في إطار بنية تدرك بحضور عنصرين (على الأقل) تربطها علاقة بطريقة أو بأخرى. ويرتكز هذا التمثيل أساساً على فرضية التماثل والتي بمقتضاها يمكن فحص ماهية المضمون بالأدوات المنهجية المطبقة على صعيد التعبير. وعليه، فإن تمفصل العالم الدلالي إلى وحدات معنوية صغيرة (السيمات) يناظر القيمات المميزة لصعيد التعبير. ومن الواضح أن السيم بوصفه وحدة دلالية قاعدية لا يحقق وجوده إلا في علاقته بعنصر آخر. ولئن كانت وظيفته خلافية بالدرجة الأولى، فإنه يستحيل أن يدرك خارج إطار البنية.

على هذا الأساس، تتبنى الترجمة على تمثيل وفهم المصطلح في اللغة الأصل وإدراك سياقاته، والنظر في النصوص النظرية التي تغذيه، وضبطه بما يتوافق والإطار العام الذي يندرج ضمنه البحث. ويؤدي الابتعاد عن التوجهات الأساسية في العمل الترجمي إلى اضطراب في الفهم ينعكس سلباً في عملية تلقي الرسالة على نحو ما نلاحظ ذلك في ترجمة النص الآتي:

«Le savoir n'a de sens dans une vie que s'il est un vouloir - savoir ou un faire - savoir , s'il fonde l'activité de l'homme en tant que quête»⁽²⁾

وقد ترجم خليل أحمد وأوديت بيتيت هذا المقطع على النحو التالي:

(1) A. J. Greimas , J. Courtés ,Sémiotique / Dictionnaire raisonné de la théorie du langage ,HU, Paris , 1979 ,p. 346.

(2) A. J. Greimas in Anne Hénault , Les enjeux de la sémiotique , PUF , Paris , 1993 , p. 5.

"إن المعرفة لا معنى لها في الحياة إلا إذا كانت إرادة معرفة أو إعطاء معرفة،
تأسيس فعالية الإنسان كاستجداء".

أما الأستاذ أحمد علي، فإنه يقترح في تقديمه كتاب المراهنات الترجمة الآتية:
"لا معنى للحياة، لمعرفة تتصف بإرادة الإنسان للمعرفة، أو بصناعة لها، لأن
حيوية الإنسان: تتحقق بطلب المعرفة واكتسابها، ثم بمنحها لغيره".

إن قارئ هذه الترجمة لا يلقى نفسه في لغتها؛ وهي ترجمة حرفية لا تحيل
على مضمون النص ولا تراعي الشروط الأساسية في الصياغة العربية التي جاءت
مفروزة وغامضة. حتى المصطلحات اقتفت الصياغة الفرنسية وأسقطت إسقاطا
على البنية العربية مما جعلها تفتقد إلى التماسك التركيبي والدلالي. إن غريماس في
هذا المقطع لا يشير، لا من قريب ولا من بعيد، إلى صناعة المعرفة أو إعطاء
معرفة. فهو يميز تمييزا واضحا بين المعرفة من جهة والرغبة في تبليغها من
جهة ثانية. هكذا نلاحظ أن الترجمة حولت المعنى عن مجراه الطبيعي. يحدد
غريماس في هذا المقطع الشروط الأساسية لوجود المعرفة، وهو وجود يخضع إلى
برامجين أساسيين:

- يتحقق البرنامج الأول بتأسيس فاعل ممتلك للرغبة في إقامة وصلة
بمعرفة، ومن ثم، فإن فعله [نشاطه] ينضوي داخل عملية التحري المسخرة لـ
réparation du manque.

- يتحقق البرنامج الثاني عبر فاعل مالك لرغبة في تبليغ المعرفة. بالإضافة
إلى هذا، فإن الباحث ترجم النص ترجمة حرفية دون أن يكثر في ذلك للجوانب
النظرية للمصطلح. إن وضع الاستجداء كمقابل لـ quête بعيد كل البعد عن
التنسيق الدلالي الذي سخره غريماس لوضع الشروط الضرورية المؤدية إلى امتلاك
أو تبليغ المعرفة. ذلك أن الاستجداء في الاصطلاح اللغوي مشتق من:

جدا فلانا وعليه جدوا: أعطاه،

جداه جديا: سأله الجدوى،
اجتداه، استجداه: طلب منه الجدوى⁽¹⁾.

ولئن كان الاستجداء، في بعده الدلالي، يفتقد إلى الفاعلية، فإن المستجدي يحتل دائما وضع فاعل حالة فاقد لموضوع القيمة. من هنا وجب أن نفكر في مصطلح آخر يحقق الفاعلية في منظورها السيميائي. من خلال معابرتنا للمصطلحية المعتمدة في بعض البحوث السيميائية العربية، فإننا نرجح استعمال التحري كمقابل لـ. quête فهو، من جهة، يتوافق مع ما ينسب عادة من فاعلية للفاعل المنفذ sujet opérateur، وينسجم، من جهة أخرى، مع الوحدات المعنوية التي يحملها التحري على نحو ما نلاحظ ذلك في اصطلاحه اللغوي:

حرى الشيء، تحرّاه وتحرّى عنه: اتجه نحوه⁽²⁾. إن المسار الدلالي المحقق في /التحري/ يناظر تماما التعريف الذي وضعه غريماس لمصطلح quête الذي يستعمل للدلالة على تنقل الفاعل في اتجاه موضوع القيمة [la quête est le déplacement du sujet vers l'objet]⁽³⁾. بناء على هذا، يمكن أن يترجم المقطع السابق الذكر على النحو التالي: "لا معنى للمعرفة في الحياة إلا إذا جسدت الرغبة في تلقي أو تبليغ المعرفة، وأسست نشاط الإنسان بوصفه تحرياً...".

وإذا انتقلنا إلى موضع آخر من هذا الكتاب، فإنه يستبين للقارئ أن الباحثين لم يولوا أهمية إلى الجهود العربية المبذولة في مجال ترجمة المصطلح. ولئن كنا مدركين عمق الاختلافات القائمة بين الباحثين العرب بخصوص هذه المسألة، فإنه لا ينبغي أن يتذرع بهذه الحجة لإقصاء هذه الجهود. إن المبتدع للترجمات العربية في مجال اللسانيات والسيميائيات، يدرك لا محالة أن نسبة متواضعة منها تكاد

(1) إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، دار الدعوة، استانبول، تركيا، 1989، مادة جدا.

(2) المرجع نفسه، مادة حرى.

(3) A. J. Greimas, J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, HU, Paris, 1979, p. 305.

تكون مشتركة بين الباحثين. لا يهم إن كان هذا الإجماع صادرا بشكل عفوي. إن المهم في كل هذا وذاك هو أن نتجاوز الاختلافات ونستثيق بما يجمع الباحثين ويعبئ طاقاتهم لتوحيد المصطلح. إن مستقبل السيميائية العربية يظل مرهونا في بعض جوانبه بهذه الرغبة في درك جوهر الاختلافات والقيام بمسح شامل لما أنجز والوقوف عند القواسم المشتركة في البحوث العربية الراهنة.

2-1-2 موقع البحوث السيميائية من الدراسات النقدية العربية المعاصرة

2-1-2-1 اعتبارات أولية

ستركز دراستنا في هذا المبحث على بعض البحوث السيميائية العربية التي استطاعت أن تقدم للقارئ العربي رؤية واضحة حول السيميائية بعامه وخطاب أ. ج. غريماس بخاصة. وقد حاولت هذه البحوث بقدر الإمكان أن تتجاوز بعض المعضلات المفهومية والصعوبة الفعلية في النص السيميائي الأوروبي نفسه، والتي تضاعف المشاكل على الترجمة العربية بسبب الاختلاف المرجعي، في سبيل إرساء قنوات الاتصال بين هذه المعرفة الجديدة والقارئ العربي. وقد أدرك هؤلاء الباحثون: "أن النقد العربي الحديث ظل منذ زمن طويل بعيدا عن قراءة "ماهية النص" وظل سنوات طويلة ربما حتى نهاية السبعينات يدور حول "وظيفة النص" التي تعد أسهل بكثير من الكلام عن الطبيعة لهذا تأخرت استفادة النقاد العرب من المنهج السيميائي في تحليل النصوص"⁽¹⁾. إن هذه البحوث التي وقع عليها اختيارنا ظهرت في ظرف تحولت فيه "بعض التطبيقات السيميائية العربية إلى مجموعة من الخطاطات الصورية الشكلية وبالتالي: يبدو لنا النص كما لو كان بلا دم ولا حركة للحياة فيه. حيث يتم تطبيق المصطلحات والخطاطات الأوروبية بشكل ميكانيكي وبمرجعيتها الأوروبية دون الاهتمام بعملية التلئين والهضم من أجل التواصل مع القارئ العربي ودون معاناة مع النص ذي المرجعية الشرقية مثلا. وهذا كله خلق

(1) د. عز الدين المناصرة، السيميائيات. . . و الألب/قراءة مونتاجية، في:

رشيد بن مالك، عز الدين المناصرة (مراجعة وتقديم) السيميائية، أصولها وقواعدها، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2002، ص. 58.

نوعا من الهروب لدى القراء (...) مع أن إحدى فصائل السيميائية هي التواصل⁽¹⁾. إن هذه التطبيقات "السيميائية"، كما أشرنا إلى ذلك في يدلية هذا البحث، ضللت القارئ العربي الذي اختلطت عليه السبل وأضحى فاقدا للنقاط العلمية التي تقوده إلى التمييز بين هذا التيار أو ذاك. لهذه الاعتبارات كلها، حاولنا في هذا المبحث أن نقف عند حدود تيار واحد، وتحديد السيميائية مدرسة بلريس لنكشف عن نقاط القوة لبعض البحوث وعن النتائج العلمية المحققة وعن الوجود المعبأة لإقامة تواصل حقيقي مع القارئ العربي من خلال فهم السيميائية في مظانها والاشتغال على الخطاب السيميائي الناشئ وترويضه ليكون جديرا بقراءة لا يلقى القارئ صعوبة في تلقي هذه المعرفة الجديدة على الفكر النقدي العربي المعاصر.

2-2-1-2 قراءة في بعض البحوث السيميائية العربية

إن اختيارنا لإنجازات عبد الحميد بورايو، وسعيد بنكراد ومحمد الناصر العجيمي ومحمد القاضي صادر عن قناعتنا بأن هذه البحوث تعكس بشكل نسبي الجهود التي تبذل في سبيل الارتقاء بالنقد العربي من الرؤية المعيارية إلى الرؤية العلمية، وتعكس أيضا الطاقات التي عبأها أصحابها لقراءة وفهم التوجهات المنهجية في تحليل النصوص السردية من منظور سيميائي. وفي أثناء التصدي لهذه النصوص، تعددت الممارسات النقدية من باحث إلى آخر واختلفت السبل والغايات المنهجية في التحليل. من ذلك أن نصوص عبد الحميد بورايو وسعيد بنكراد لم تتعامل مع السيميائية على أنها غاية في حد ذاتها بل تبنتها لأنها وسيلة مسخرة لفهم الإشكاليات التي يطرحها التصدي للمعنى المتخفي في الممارسات الإنسانية الدالة والمجسدة في اللسان وغير اللسان. إن قراءة سريعة في هذه البحوث تجعلنا ندرك أن الباحثين اشتغلا على الخطاب النقدي وروضاه بشكل نقاديا فيه كل تعقيد مصطلحي وجنحا في ذلك إلى التبسيط دون أن يتخلوا في صناعة نصوصهم عن الإطار السيميائي العام الذي يفرضه مقام البحث. أما نصوص محمد الناصر

(1) نفسه، ص. 59.

العجيمي ومحمد القاضي، فإنها وصلت إلى درجة كبيرة من الزخرفة المنهجية. وقارئ هذه البحوث يخرج بانطباع عام مفاده أن خطابها النقدي الذي عوم بترسنة من المصطلحات لم يصنع في سبيل إقامة وصلة علمية حقيقية بالقارئ بل أنجز في جوانبه التطبيقية بهدف تقديم الإجراءات السيميائية على أنها عناصر ديكور وغاية في حد ذاتها. من هنا اتسمت هذه الإجراءات بالتطبيق الآلي على النصوص.

3-2-1-2-2 الرهان التأويلي في كلية ودمنة

تتحصر الأسباب التي تقف وراء اختيارنا لهذه البحوث في اعتمادها بعض حكايات كلية ودمنة موضوعا للممارسة النقدية التي اختلفت من باحث إلى آخر في طريقة التحليل أولا وفي التخريجات الدلالية ثانيا. يشكل التحليل السيميائي للخطاب السردى⁽¹⁾ للباحث عبد الحميد بورايو حدثا نقديا في الجزائر واستطاع أن يستثمر الإنجازات البروبية من منطلقات سيميائية. همه الوحيد في كل ذلك الإحاطة الدلالية بحكاية الحمامة المطوقة استنادا إلى بنيتها ووفقا لتقطع نصي يتصدرها. وبلوغ هذه الغاية، نزع إلى أن تكون السردية هدفا للتحليل "غير أن هذه السردية لا يمكن القبض عليها وعلى مكوناتها، كما يتعذر الإمساك بمظاهرها إلا من خلال الخطاب"⁽²⁾. لهذا الاعتبار المنهجي، انطلق من دراسة البنيات الخطابية الآتية:

-الحقل المعجمي

-المقطوعات الخطابية

-التجسيديات الخطابية

إن أهم ما تتميز به هذه الدراسة، هو أن الباحث التزم حدود النص وأدرك مستوياته واستطاع من خلال اشتغاله على اللغة صناعة خطاب نقدي يوفق فيه بين التقيد التي يفرضها الجهاز السيميائي وتطلعات القارئ العربي إلى نص نقدي ييسر له سبل الاتصال بالمناهج الحداثية.

(1) عبد الحميد بورايو، التحليل السيميائي للخطاب السردى، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003.

(2) المرجع نفسه، ص. 69.

يمكن أن نشير إلى أن الباحث في معرض حديثه عن النقص⁽¹⁾، لم يول أهمية إلى القراءة التي قدمها غريماس للمشروع البروبي، الذي يعتبر فيه الفعل أساس تعريف الوظيفة. إن الدارس كما يرى ذلك غريماس، سيقف محتاراً أمام التناقض الذي يميز الوظيفتين: "إذا كان رحيل البطل، باعتباره شكلاً من أشكال النشاط الإنساني، يعد فعلاً، أي وظيفة، فإن النقص (manque) لن يكون كذلك، ولا يمكن التعامل معه كوظيفة بل هو حالة تستدعي فعلاً"⁽²⁾

وبالإضافة إلى هذا، فإن الباحث على الرغم من أنه تمكن من درك الإطار التلظي (دبشليم/بيدبا) لحكايات كليلة ودمنة في أثناء تأويله الدلالي لحكايتي الحمامة المطوقة وقصة الحمامة والتعلب ومالك الحزين، فإنه في الوقت نفسه عزله من السياق التحليلي واعتبره من خارجيات النص:

"هذا بالإضافة إلى الحكم العام المستخلص من القصة -المثل التي جاءت لتجسد حكماً ورد كمقدمة للنص لم ندمجها في التحليل على لسان الملك "دبشليم" وهو يتوجه بالخطاب لراويته "بيدبا" قائلاً: "فحدثني، إن رأيت عن إخوان الصفاء كيف يبتدئ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض"⁽³⁾.

"وهو نفس الموقف الانتقادي الذي جاء على لسان بيدبا الفيلسوف الراوي الخارجي لهذه القصة"⁽⁴⁾.

إذا استندنا إلى النص، فإننا لا نستطيع أن نحدث انقطاعاً في المتصل الخطابي لكليلة ودمنة، وننظر إلى الحكايات نظرة خارجية عن هذا المتصل المنضوي داخل الجهاز التلظي الذي ترتب الحكايات إلى وجوده. إن بيدبا ودبشليم حاضران في

(1) المرجع نفسه، ص. 73

(2) سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، دار تيمل للطباعة والنشر، مراكش، 1994.

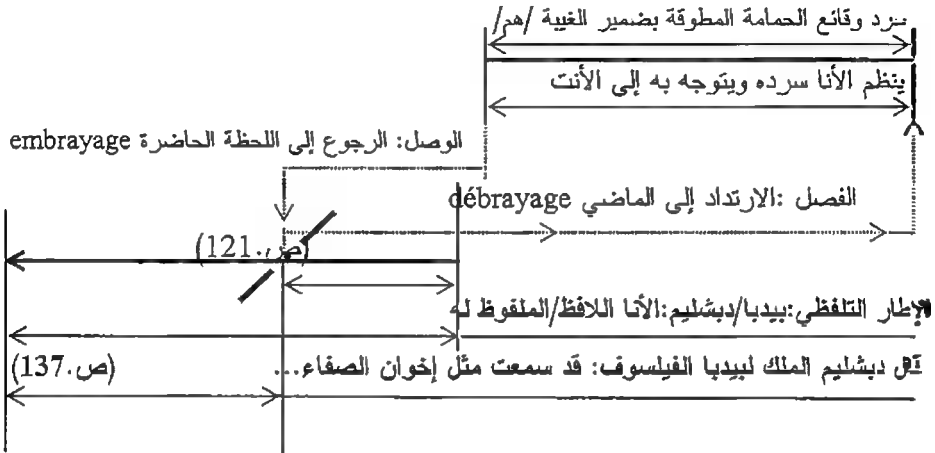
- A. J. Greimas, Les acquis et les projets in J. Courtès, Introduction à la sémiotique narrative et discursive, H. U, Paris, 1976, P. 7-8

(3) عبد الحميد بوراير، المرجع السابق، ص. 79.

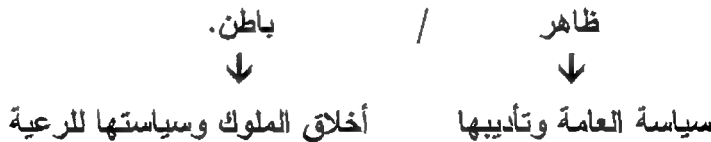
(4) المرجع نفسه، ص. 95.

نقص الحكائي، نستدل على ذلك بعلامات التلفظ التي تحيل عليهما: قال بيدبا: **رعموا أنه كان بأرض سكاوندجين. . .**"

يمكن أن تمثل البنية الشكلية لهذا الملفوظ على النحو الآتي:



إن بيدبا في احتلاله موقع الالفاظ (أنا) يسرد الوقائع بضمير الغيبة (هم) ويتوجه من داخل النص بخطابه إلى الأنت (الملفوظ له). تأسيساً على هذا، فإن إدراك الحمولة الدلالية للنص، لا يمكن أن تسيج في إطاره. فهي تابعة للعقد التلفظي المعبرم بين بيدبا ودبشليم: "وقد أحببت أن تضع لي كتاباً بليغاً تستفرغ فيه عقلك ويكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها، وباطنه أخلاق الملوك وسياساتها الشرعية..."⁽¹⁾. وعليه، فإن تأويل الحكايات "المروية على لسان الحيوان" لا يمكن أن ينأى عن التمثيل الدلالي الذي يغذي الحكايات ويقطع النظر عن البعدين الاجتماعي والسياسي:



(1) بيدبا، كلية ودمنة، ترجمة عبد الله بن المقفع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1983، ص. 25.

بقي أن نشير في نهاية هذه القراءة إلى أن البنية العميقة للحمامة المطوقة على النحو الذي قيدها الباحث عبد الحميد بورايو، لم تركز على النتائج المحققة في دراسة البنية الخطابية والبنية السردية للنص. وعلى الرغم من أنه انتهى إلى بعض الدلالات الفرعية من خلال تحكمه في التقابلات الأساسية للنص وحصره لمختلف الصور التي تعمل على تجلية الوحدات المضمونية، فإنه شيد البنية العميقة على "مفهوم فلسفي كان سائدا زمن روايتها يقوم على ثنائية الروح/الجسد"⁽¹⁾. وقد جاءت هذه الثنائية مفروضة على النص فرضا وغريبة عنه ومتنافرة مع ما سبق من تحليل، وليس لها ما يبررها في الحكاية.

أما الأستاذ محمد الناصر العجيمي⁽²⁾، فقد حاول في إطار التوجه السيميائي وتحديدًا نظرية غريماس أن يقدم دراسة تتوخى الدقة في ضبط المفاهيم الإجرائية والمصطلحية السيميائية العامة، فخصص لذلك قسما نظريا عرض فيه لمستويات التحليل في النظرية السيميائية. فنظر إليها على أساس أنها حقائق ثابتة دون أن يلزم نفسه في ذلك مناقشة بعض القضايا الجديرة بال طرح والمساءلة. وانتقل في القسم الثاني من هذه الدراسة إلى تحليل حكاية الأرانب والفيلة. وهو نص مأخوذ من كليلة ودمنة. وقد التزم الباحث خطة واضحة في فحص النص. بدءاً من تقطيعه وتحديد مستوياته والنظر في بنيته على الصعيدين السطحي والعميق. ولاحظنا في أثناء قراءتنا لهذه الدراسة أن الباحث يقوم باستعراض ترساة من المصطلحات لا نلقى فيها ما يتوافق مع الترجمات المستعملة في الخطاب السيميائي العربي. ويعترف الباحث نفسه بأنه واجه "القدر الكبير من المصطلحات بمجهود فردي أساساً"⁽³⁾. إن هذه الطريقة في التعامل مع المصطلح ستؤدي من دون أدنى شك إلى تضخم لا يساعد في جميع الحالات على إقامة وصلة علمية حقيقية بالقارئ. وتوحي الطريقة التي تم بها التعامل مع النص سيميائياً بأن الباحث بذل مجهوداً خيالياً حتى يكون

(1) عبد الحميد بورايو، المرجع السابق، ص. 82.

(2) محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردى /نظرية غريماس (Greimas)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993.

(3) المرجع نفسه، ص. 17.

للتحليل وفيما للنظرية التي وضعت أصلا لفض الإشكالات التي يطرحها النص
التردي على وجه الخصوص.

وقد لاحظ الباحث في خاتمة هذا البحث أن القارئ "لا يحتاج إلى نفاذ رؤية-
ليتين من خلال الفيلة - صورة الحاكم المتسلط الطاغية. والأرجح أن المعني هو
أبو العباس أو أبو جعفر المنصور الذي يتهده مصير شبيهه بمصير الفيلة، مصير
يؤول إليه كل من أسس حكمه على "الظلم"، خارقا بذلك العقد المنظم لعلاقات الحاكم
بالمحكومين، محدثا تصدعا في توازن الكون المحكوم بقواعد أزلية"⁽¹⁾.

إنه يتعامل مع عبد الله بن المقفع كما لو أنه كاتب النص، فينزع بتأويله مباشرة
إلى المجتمع العربي الإسلامي وينظر من خلال النص إلى العلاقة التي تربط الحاكم
بالمحكوم في هذا المجتمع. يمكن أن يستغل، منهجيا هذا الإسقاط، في مناقشة اختيار
عبد الله بن المقفع لترجمة نص تعمل مضامينه، انطلاقا من تحليله، على تجلية
العلاقة بين الملك والرعية في المجتمع الهندي. ويتجه التأويل بعد ذلك إلى إدراك
تقيم من حيث القواسم المشتركة بين المجتمعين في إشكالية تسيير الفعل السياسي.

وإذا نظرنا في حكاية الأراتب والفيلة على أنها جزء من الأجزاء السردية التي
تشكل منها كليله ودمنة، فإنها على المستوى التداولي مسخرة لإقناع ملك الغربان
بصحة الطرح العقلاني الذي ينزع إليه الغراب للرد بإعمال الفكر والروية على
نتيجة التي قامت بها جماعة اليوم. إن النزوع العقلاني بوصفه قيمة أساسية في
معالجة الغزو الخارجي أفضى إلى تحقيق الانتصار العسكري وإبطال مفعول كل
قوة خارجية تطمح إلى زعزعة الاستقرار الداخلي لمجتمع الغربان. ينبغي أن نرقى
بقيمة الأساسية في هذه الحكاية على المستوى التداولي ونضعها في قلب الحوار
تائر بين الملك دبشليم والفيلسوف بيدبا الذي يسعى إلى أن يمارس فعله الإقناعي
على الملك. وتعمل العملية الإقناعية على تجلية القيم الأساسية المسجلة على
تمشور العميق لحكايات كليله ودمنة التي تجري مجرى الخطاب الحجاجي

(1) محمد الناصر العجيمي، المرجع السابق، ص. 140.

المسخر لإقناع الحكام بأهمية الحوار والمشاورة في المسائل الاستراتيجية التي تخص شؤون الرعية ومستقبل البلد.

وفي اتجاه مخالف لتأويل محمد الناصر العجيمي، يذهب محمد القاضي في نهاية تحليله لـ مثل الأسود وملك الضفادع من كليلة ودمنة إلى أن الوضع يتسم منذ البداية بالتعقيد: "رجل ينتمي إلى أمة مغلوبة، يغير انتماءه إلى الأمة الغالبة، ثم ينقل من أمة القديمة هذا الكتاب إلى أمة الجديدة. والنص يتضح بهذا الواقع جيئة وذهابا. فهو في لغة الغالب، ظاهره نصحه له وتثبيت لأقدامه، ولكنه من أصل فارسي باطنه تهكم وتحيل وخداع"⁽¹⁾.

إن هذا التأويل مزاح تماما عن النتائج التي أفضى إليها التحليل الذي قدمه محمد القاضي لحكاية الأسود وملك الضفادع. وتعد هذه النتائج محصلة لتحليل تقف وراءه مقاربات منهجية متنوعة ومتضاربة أيضا وتختلف من حيث الأهداف المسطرة وتفتقد إلى إشكالية بحثية واضحة. ينظر الباحث في بداية الأمر في ملفوظ الحالة فيضبط من منطلقات سيميائية علاقات الفاعل الفصلية والوصلية بالطعام، ثم يزخرف ذلك بنموذج عاملي مضطرب، مفتقد إلى الأسهم، وبالتالي إلى معنى. ولكنه سرعان ما يغادر البنية السطحية والاتجاه السيميائي، دون تقديم أي تبرير منهجي، ليدرج بحثه في إطار آخر مغاير تماما، فيتحدث عن الإحداثيات الزمنية وأساليب القص وأنماط الرؤية في النص من منظور جيران جينيت. وفي مستوى الدلالة، يخرج من النص ليشير قضايا مفتعلة، متعلقة بانتماء عبد الله بن المقفع ونواياه المبيتة. و يكفي أن نلقي نظرة في مقدمة كتاب كليلة ودمنة لنذكر الأسباب التي حركت الملك كسرى أنو شروان لطلب هذا الكتاب النفيس. وإذا وقع اختيار عبد الله بن المقفع بوصفه رجلا متقفا واعيا بالأبعاد السياسية، على هذا الكتاب، فإننا نتساءل عن المصدر الذي أهل الباحث لامتلاك معرفة دقيقة بباطن عبد الله المقفع المتسم بالتهكم والتحيل والخداع.

(1) محمد القاضي، تحليل النص السردي، دار الجنوب للنشر، تونس، 1997، ص. 74.

4-2-1-2 ممكنات النص ومحدودية النموذج

بعد الأستاذ سعيد بنكراد وجها من الوجوه النقدية البارزة في المغرب. وقد سخر كل جهوده لفهم السيميائية مدرسة باريس نظريا، فألف في ذلك بحثا مهمة يعرض فيه للإنجازات السيميائية وأصولها وأسسها الإيبستيمولوجية ومجالات انتماءاتها⁽¹⁾. وقد تنوعت مجالات تطبيق السيميائيات عند الباحث: الرواية، الصورة الإشهارية، الألبوم الفوتوغرافي. ولئن كانت زاوية النظر تختلف من شكل إلى آخر، فإن الاختلاف، سواء كان مبررا أم لا، يهدف إلى الإحاطة بالشروط التي من خلالها يتم إنتاج وإدراك الدلالة.

إن المتتبع للمسار العلمي للباحث سعيد بنكراد، يدرك أنه شهد تحولا جذريا في آخر نص كتبه "ممكنات النص ومحدودية النموذج"⁽²⁾. ويقدم فيه مجموعة من الاعتراضات على الأسس النظرية للسيميائيات السردية.

إن النتائج التي انتهى إليها، على أهميتها، لم تنهض على الإحاطة الشاملة باعتراضات السيميائيين أنفسهم على بعض الطروحات النظرية (انظر في هذه دراسة: التوجهات السيميائية بعد 1992). ولو تم فعلا الاطلاع على هذه البحوث نحت الدراسة نحو آخر. يقول الباحث في معرض حديثه عن التأويل السيميائي "نصوص" ولهذا فإن القول بإمكانية الإحاطة الكلية بالدلالة النهائية للنص ضمن قراءة واحدة شاملة أمر في غاية الغرابة. فأبسط نص سردي لا يمكن أن يكون حاملا لدلالة واحدة ولا يمكن أن يكون تحققا كلياً وشاملا لأي نموذج. إن قناعة من هذا القبيل تعني إلغاء دور السياقات الداخلية التي تخلقها الوحدات في غفلة من تأليف نفسه"⁽³⁾.

إن السيميائيين لم يتعاملوا أبدا مع النص على أنه يتضمن دلالة واحدة. ويأتي اعتراض الباحث، فيما يبدو، في الامتداد الطبيعي لموقف رولان بارت من النقد

١- سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، دار تيمل للطباعة والنشر، مراكش، 1994

٢- سعيد بنكراد، السيميائيات، مفاهيمها وتطبيقاتها، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003.

٣- سعيد بنكراد، ممكنات النص ومحدودية النموذج، مخطوط، المغرب، 2004.

٤- المرجع نفسه، ص. ٨

الكلاسيكي: "يملك النص معنى وحيدا وواحدا، معنى حقيقيا، ومعنى نهائيا"⁽¹⁾. إن متتبع سيميائية الجيل الأول والثاني، يدرك أنها قامت بالفعل على نفس الفكر الواحد في الممارسة النقدية السيميائية وتشديد جهاز نظري كفيل ببناء دلالة النص من الداخل وانطلاقا من مستويات محددة في أثناء التحليل. ومن الواضح أن الممكنات الدلالية للنص مربوطة بزاوية النظر التي يتبناها الباحث وبالفرضيات التي يقدمها في أثناء تصديده للنص.

— نسجل في نهاية هذه الدراسة أن التفكير في مستقبل السيميائيات في العالم العربي يعد مغامرة صعبة حاولنا بقدر الإمكان الإشارة إلى بعض الأخطار المنجرة عنها من خلال طرح السؤال حول الممارسة السيميائية الراهنة وتسييج عناصر إجابة هي في جميع الحالات وجهات نظر تحتاج إلى مناقشة عميقة وصريحة وشفافة. إن استشراف المستقبل ليس فقط رفع البصر للنظر إليه وإسقاط أحلامنا وطموحاتنا المشروعة عليه، بل إنه درك لواقع البحث العربي بكل تفاصيله وتناقضاته. ولئن كان مستقبل السيميائيات العربية يمر حتما عبر إدامة النظر في مجموعة من القضايا أشرنا إلى البعض منها، فإنه يظل مرهونا بقدرة الباحث في أثناء تقويمه للحركة السيميائية على صياغة ملاحظات موضوعية. ويظل مرهونا أيضا بهذه الرغبة في تقليص الاختلافات بتتويع البدائل والقيام بمسح شامل لما أنجز والوقوف عند القواسم المشتركة في البحوث العربية الراهنة.

إن العينات التي وضعناها قيد الدرس والتحليل مكنتنا من أخذ صورة، حتى ولو كانت جزئية، عن المستوى الذي وصلت إليه البحوث السيميائية وعن بعض الاضطرابات المنهجية التي تلقى حلولها في الحوار المؤسس والمتواصل. ومع كل هذا، فإنها استطاعت أن ترقى بالنقد العربي من الرؤية المعيارية إلى الرؤية العلمية وإلى أعلى درجة من التفكير والتمثل الواعي والهادف إلى بناء استراتيجية بحثية تعمل على إفراز قيم علمية ستكون فاعلة، لا شك، في المسار الإيجابي الذي سيؤول إليه البحث السيميائي مستقبلا.

(1) R. Barthes, Texte (théorie du) in Encyclopaedia Universalis ,Volume XV ,p. 1014.

بيبلوغرافيا البحث (مرتبة حسب ظهورها في النص)

- 1- Jacques Geninaska , **Et maintenant ?** in Mauricio Beuchot Pierre .
Maria Pia Pozzato Jacques et autres, **Lire greimas** , PULIM .
Limoges , 1997.
- ٢- سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، دار تينمل للطباعة والنشر،
مراكش، المغرب، 1994.
- 3- A. j. Greimas, Les acquis et les projets in J. Courtés, **Introduction à la sémiotique narrative et discursive**, HU, Paris, 1976 .
- 4- A. J. Greimas , J. Courtés, **Sémiotique /Dictionnaire raisonné de la théorie du langage** , HU, Paris , 1979.
- 5- J. Courtés , **L'énonciation comme acte sémiotique** , Nouveaux actes sémiotiques , Pulim, Université de Limoges, n°58-59, 1998.
- 6- J. Fontanille , **Sémiotique et littérature / Essais de méthode**, PU Paris , 1999.
- 7- Oswald Ducrot, Tzvetan Todorov, **Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage**, Seuil, Points, Paris, 1972.
- 8- Roland Posner, **Signification et usage des connecteurs propositionnels dans les langues naturelles** , Actes sémiotiques Documents, n°56, Besançon , 1984.
- ٩- ج. ك. كوكي، السيميائية مدرسة باريس، تقديم ج. كلود كوكي، ترجمة رشيد بن مالك، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003.
- ١٠- رشيد بن مالك، البنية السردية في النظرية السيميائية، دار الحكمة، الجزائر، 2000.
- 11- Bernard Pottier, **Un mal-aimé de la sémiotique :le devenir Exigences et perspectives de la sémiotique. Recueil d'hommage pour A. J. Greimas**, H. G. Rupprecht éd, Amsterdam/Philadelphie, John Benjamins, 1985, 2 vol.
- ١١- أن إينو، مراهنات دراسات الدلالات اللغوية، ترجمة أوديت بيتيت و خليل أحمد، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، 1980.

- 13- Jean – Marie Floch , *Sémiotique , Marketing et communication, sous les signes , les stratégies* , PUF , Paris , 2002.
- 14- سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، منشورات المكتبة، الدار البيضاء، 1984.
- 15- Anne Hénault , *Les enjeux de la sémiotique* , PUF , Paris , 1993.
- 16- إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، دار الدعوة، استانبول، تركيا، 1989.
- 17- رشيد بن مالك، عز الدين المناصرة (مراجعة وتقديم) السيميائية، أصولها وقواعدها، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2002.
- 18- عبد الحميد بورايو، التحليل السيميائي للخطاب السردى، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003
- 19- بيدبا، كليلة ودمنة، ترجمة عبد الله بن المقفع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1983.
- 20- محمد الناصر العجمي، في الخطاب السردى /نظرية غريماس (Greimas)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993.
- 21- محمد القاضي، تحليل النص السردى، دار الجنوب للنشر، تونس، 1997 .
- 22- سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، 1994
- 23- سعيد بنكراد، السيميائيات، مفاهيمها وتطبيقاتها، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003 .
- 24- سعيد بنكراد، إمكانات المنهج ومحدودية النص، مخطوط، المغرب، 2004.
- 25- R. Barthes, Texte (théorie du) in *Encyclopaedia Universalis*, Volume XV.
- 26- A. J. Greimas , J. Courtés , *Dictionnaire raisonné de la théorie du langage*, 1979.

قراءة سيميائية في كلیلة ودمنة لعبد الله بن المقفع

⑤. اعتبارات منهجية

فضلنا في هذا البحث أن نضع قيد الدرس والتحليل كلیلة ودمنة⁽¹⁾ وتحديدًا نص النصيحة التي أسداها الفيلسوف الهندي للملك دبشليم. إن هذا الاختيار صادر عن قناعتنا بأن حكايات كلیلة ودمنة لا يمكن أن تفهم إلا إذا قرأنا قراءة معمقة للنصيحة التي نعتبرها النص/الإطار الذي يغذي دلاليات الحكايات. ومن ثم، فإن أي تأويل دلالي لهذا النص السردي المروي على لسان الحيوان، يخرج عن النص/الإطار ومحاوره الدلالية الكبرى، سيضلل القارئ لا شك، وينقله إلى مواقع مهزوزة تنفقد إلى القواعد المؤسسة التي ينهض عليها النص في شموليته. ومن الواضح أن النص الإطار سيعمل، كما سنوضح ذلك في أثناء التحليل، على تجلية مجموعة من القيم سيسخرها بيدبا، أمثالًا في ذلك لرغبة الملك، لصناعة عالم دلالي تشيد عليه الحكايات.

وقد قسمنا النص الذي يتوزع عبر: قبل / في أثناء / بعد، إلى ثلاث مقطوعات أساسية:

1. تتحدد المقطوعة الأولى استنادًا إلى الإحداثيات الزمنية والفضائية بـ قبل ذهاب بيدبا إلى القصر.
2. يتصدر المقطوعة الثانية انتقال بيدبا إلى القصر وإسداء النصيحة للملك.
3. وتبدأ المقطوعة الثالثة بعد تبليغ بيدبا الرسالة للملك.

(1) بيدبا، كلیلة ودمنة، ترجمة عبد الله بن المقفع، الطبعة الرابعة، مؤسسة المعارف، بيروت، 1983.

وعلى الرغم من أن هذا التقطيع اعتباطي لتداخل المستويات وتعالقها في الوقت نفسه، فإنه سيمكن القارئ من درك المحطات الأساسية التي تبرز، من جهة، أداءات بيدبا في رحلته العلمية الكشفية بكل تفاصيلها ومنعرجاتها ومحنها ومن جهة ثانية، سوء تقدير الملك لهذه الأداءات، واعترافه في النهاية، بعد ارعائه، بقيمتها، وأهميتها في تشييد فعل سياسي يحتكم إلى العقل.

حتى نوضح الآلية التي يشتغل بها الخطاب الحجاجي في النص، ينبغي أن نسلم في البداية بأن الموضوعات السيميائية (كليلة ودمنة على سبيل المثال) المتقلة من هيئة (اللافظ) إلى أخرى (الملفوظ له) ترتغن في وجودها إلى فعل تلفظي. من هذه المنطلقات سنسعى إلى دراسة نص النصيحة.

1. التحريك/الاستراتيجية الخطابية في النص

تشكل النصيحة رهانا حقيقيا لبيدبا الذي يتحمل لوحده مسؤولية تغيير النظام السياسي من الداخل وبطرق سلمية. ويهدف هذا الفعل إلى رد الأمور إلى سابق عهدها وتشديد الاستيثاق بين الملك والرعية. وقد جاء وصول دبشليم إلى سدة الحكم نتيجة لتمرّد الخاصة والعامة على ملك سابق أوصله الاسكندر ذو القرنين دون استشارة الرعية إلى السلطة مباشرة بعد غزوه للهند. ولما كان فعله السياسي معبأ لإذلال الرعية، فإن هذا الملك الذي يعد من ثقات الاسكندر سرعان ما عزل. إن تملك الرعية لدبشليم مسيح في إطار عقد انتمائي يتم بموجبه تشييد عالم تحكمه مجموعة من القيم جاءت لتسد وضعية افتقار سابقة ناتجة عن سوء التسيير. وبعد أن استوسق له الأمر واستقر له الملك وأحكم سيطرته على الرعية، يخرق دبشليم العقد فيحدث بذلك هوة عميقة بينه وبينها. نلمس ذلك في الأدوار الجديدة التي اضطلع بها دبشليم: طغي، وبغى وتجبر وتكبر⁽¹⁾. وقد حركته هذه السطوة للقيام بأفعال عدوانية: عبث بالرعية، استصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم⁽²⁾. لي هذه

(1) ص. 11 (من الآن فصاعداً، سنحيل على نص كليلة ودمنة بالصفحة فقط)

(2) ص. 11

اللحظة السردية، يفقد الراوي الأمل في تغيير الوضع وحتى في إمكانية التفكير في اقتراح البديل والخروج من هذا المأزق الذي يهدد الإنسان في وجوده، وكل المؤشرات السردية التي ساقها ترشحه للتهور وبقائه على النحو الذي ابتغاه دبشليم: "فهابته الرعية، وكان لا ترتقي حاله إلا ازداد عتوا"⁽¹⁾. ولئن كانت الهيبة تلغي كل القنوات التي يمكن أن ترسى لإقامة التواصل مع الملك والحديث إليه عن أمور الملك، فإن امتلاك القدرة على مقاومتها ومواجهة الملك يعد أمرا مستحيلا، لأن ذلك سيؤدي حتما إلى الهلاك:

"غير أننا نعلم أن السباحة في الماء مع التمساح تغرير ومن دخل على الأسد في غابته، لم يأمن من وثبته وهذا الملك لم تغرعه النوائب، ولم تؤدبه التجارب ولسنا نأمن عليك ولا على أنفسنا سطوته وإننا نخاف عليك من سورته ومبادرته بسوء إذا لقيته بغير ما يحب"⁽²⁾.

إن الفيلسوف بيدبا بحكم امتلاكه للمعرفة ومن موقعه كمرسل/مقوم أدرك أن الرعية التي فوضت دبشليم لتسيير أمورها، لم ينفذ برنامجها طبقا للالتزامات المتضمنة في العقد الذي يربطه ضمنا بالرعية التي تعتبر المرسل الحقيقي الذي أراح الملك السابق وسلم مقاليد الحكم لدبشليم. ومن الواضح أنه من حق الرعية أن تتنظر فيما إذا شرف الملك التزاماته أم أنه خرقها في أثناء تسييره للفعل السياسي.

إن هذه الفرضية لا تستقيم لأن الملك صنع نظاما يستحيل على الرعية تقويم البرامج التي تفرزها الممارسة السياسية. فهي بين أمرين: السكوت عما يجري أم للتدخل في مسألة الملك والمخاطرة بالنفس. ومن ثم، فإن النزوع إلى الاختيار الثنائي سيفضي إلى مواجهة سياسية بين قوتين غير متكافئتين: القوة الأولى مجسدة في دبشليم الذي يملك السلطة السياسية والسلطة العسكرية. أما القوة الثانية التي يقف

(1) ص. 11

(2) ص. 14

وز"عد بيننا فتيًا تحكم إلى الحق والأنوب لاجلجي في حل المشكل الكبرى. من هذا، فإن امتلاك بيننا تمعرفة يد معنى فتيًا في القص: رجل فيلسوف (...). فضل حكيم، يعرف بفضلهم يرجع في الأمور إلى قوله⁽¹⁾. ولما كان يدرك أن "الوحيد في نفسه والمنفرد برأيه غير ضلع ولا نصر له"⁽²⁾، جمع تلاميذه بيدف مشاورتهم وتحريكهم في فعل جناعي تكون الغفوة منه حرًا لتلك على تغيير أسلوب الممارسة السياسية وإحداث وصلة حقيقية بتروحية. ونقّي فكرة التحالف التي اقترحتها على تلاميذه من موقع الرشائج المثبتة التي تربطه بهم:

"وقد جمعتمكم لهذا الأمر: لأنكم أسرّتي ومكان مزي وموضع معرفتي، وبكم أعتضد، وعليكم أعتد"⁽³⁾. فهو يحدد لهم من خلال صورة الأسيرة انتماء من ناحية وانصهار أنه من ناحية ثانية في مجموعة تحكما قرابة طمية مبنية على عقد ثقة. على هذا الأساس، يثمن بيدبا الفعل العلمي الناشئ من فضاء تستثمر فيه القيم العلمية وتصنع فيه المعرفة. من هذا الموقع، يستمد القوة الكفيلة بقلب موازين القوى على مستوى هرم السلطة. إن بيدبا يسعى بخطابه إلى تعبئة تلاميذه بوصفهم النخبة المثقفة الفاعلة في المجتمع الهندي. وهي تعبئة قائمة، على المستوى المعارفي، على الإقناع بالحجة: "على أن العاقل قد يبلغ بحيلته ما لا يبلغ بالخيال والجنود"⁽⁴⁾.

وكما استطاعت القبرة أن تلحق أضرارًا جسيمة بالفيل المتسلط من خلال تحريكها للغربان (فقًا عيني الفيل) والضفادع (انتقالها إلى ودة وإحداث النقيق لحمله على الشرب والسقوط) وكما استطاعت الأرانب بفضل ذكاء فيروز أن تدفع الفيل إلى التوبة من خلال تحريك صورة القمر، فإن بيدبا يملك من القوة (القدرة العقلية) التي تجعله يحول مجرى الفعل السياسي للملك لصالح الرعية. بهذا الخطاب الحجاجي يسعى بيدبا إلى إقناع تلاميذه رغبة منه في انخراطهم في برنامج يركز

(1) ص. 11

(2) ص. 13

(3) ص. 13

(4) ص. 13

أناسا على البعد المعرفي dimension cognitive في مواجهة الملك: "ولا يمكن مجاهدته بغير ألسنتنا"⁽¹⁾. ولئن كانت مسألة التحالف مع الغير للقيام بهجوم عسكري على الملك غير واردة: "ولو ذهبنا إلى أن نستعين بغيرنا لم نتهياً لنا معاندته"⁽²⁾، فإن فكرة الجلاء عن الوطن غير واردة أيضاً: "وليس الرأي عندي للجلاء عن الوطن"⁽³⁾.

إن قراءة بيدبا للبرنامج السياسي للملك جعله يقوم تقويماً سلبياً ممارسته للسلطة التي تجسدت عبر أفعال تنصهر في برنامج أساسي موجه ضد وجود الرعية وحققها في الحياة ويبين الحدة التي بلغها الملك في تعامله مع الرعية. ويتجسد هذا البرنامج عبر مجموعة من الأفعال طغى وبغى وتجبر وتكبر (...)، عبث بالرعية، استصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم⁽⁴⁾، تعكس طبيعة تعامل الملك مع الرعية وعلاقته بها المتوترة والمبنية أساساً على التسلط والظلم والإسراف فيه وخرق الحقوق الطبيعية للرعية والسعي بالفساد خارجاً عن القوانين المنظمة للممارسة السياسية.

وإذا انتقلنا إلى المستوى الخطابي، فإننا نلاحظ أن هذا البرنامج يلقي تجلياته في مسارين صوريين. يتضمن الأول مجموعة من الصور تحيل وحداتها لمضمونية على حاكم لا يمتثل في سلوكه لمقتضيات النظام الخلقي الذي يحتكم إليه كل فرد في المجتمع. ويتشكل هذا المسار من الصور الآتية: رداءة السيرة، سوء السيرة، قبح الطريقة، المبادرة بالسوء. أما المسار الثاني الذي يتشكل من صور السطوة والسورة، والظلم للرعية، والخروج عن العدل ولزوم الشر، فإنه يعمل على توصيف ممارسة دبشليم للسلطة. ولئن كان دبشليم مشيداً هذه الممارسة على القمع والبطش، فإنه استطاع وبشكل مؤقت أن يلقي الرعب في قلوب الرعية

(1) ص. 12

(2) ص. 12

(3) ص. 11

(4) ص. 11

العامة والخاصة: "فهايته الرعية"⁽¹⁾ ويصرفنا بحث قننيتي على الفعل عن كل محاولة تهدف إلى قلب نظامه، وسيكون لنا أثر في إيضاح مفعول تحريك بيدبا للعامل الجماعي التلاميذ. من هذه المنطلقات نعي التفتيش إلى تحريك الخاصة من الرعية وإقناعها لا بمشروعية خلع الملك ولكن بضرورة تحمل المسؤولية للحديث إليه في أمور الملك. وقد بدأت تتضح معالم هذا التوجه في شكله المضمّن في اللحظة السردية التي مارس فيها بيدبا فعله التأويلي في التقييم التي أفرزها البرنامج السياسي الذي نفذته الملك. وقد أفضى هذا التأويل إلى تقييم ملبّي حركه للقيام ببرنامج مضاد يكون الهدف منه تحريك الملك للدخول في وصلة بقيم العدل التي يحتكم إليه تسييره للفعل السياسي.

على الصعيد السردى، يسعى بيدبا إلى تحريك الفاعل الجماعي التلاميذ لتأسيسه مرسلًا محركًا يمارس سلطته المعرفية على الملك لحمله على القيام ببرنامج سياسي ينهض أساسًا على المشاورة والحوار والعدل والإنصاف في حل المشاكل التي يعرض لها المجتمع الهندي. وعلى الرغم من أن التلاميذ اقتنعوا بصدق خطابه الذي تلقى توافقا مع طموحاتهم ورغبتهم في التغيير، ونبل القيم التي يدافع عنها والرامية إلى إعادة الاستقرار، فإنهم رفضوا الانخراط في مشروعه تأمينًا لحياتهم وخوفًا من بطش الملك وسطوته عليهم وعليه. إن خوفهم من رد فعل الملك وتوقعهم للهزيمة والشعور بالقلق من خطر وشيك الوقوع يودي بحياتهم أبطل مفعول رغبتهم، وعطل قدرتهم، وقلل من أهمية مواجهته بالحيلة (المعرفة).

2. المواجهة/البنية الجدالية في النص

وإذا كان بيدبا قد فشل في تعبئة تلاميذه، فإنه قرر مقابلة الملك. ومن الواضح أن اتخاذ قرار المواجهة أو تنفيذ المهمة المؤهلة يرتب في وجوده إلى مجموعة من الجهات التي تدخل في تشكيل كفاءة الفيلسوف الذي أسس نفسه فاعلا في برنامج التغيير في الوقت الذي أدرك الشرخ الموجود بين السلطة والرعية. في هذه اللحظة

(1) ص. 11

ماكنه الرغبة في التغيير الذي أضحي المنفذ الوحيد الذي تتسرب عبره القيم الصائنة لكرامة الإنسان. يتمظهر وجوب القيام بالفعل والرغبة في التغيير عبر الملفوظات الآتية:

"إن الفيلسوف لتحقيق أن تكون همته مصروفة إلى ما يحصن به نفسه من نوازل المكروه ولواحق المحذور"⁽¹⁾.

"فلما رأى الملك وما هو عليه من الظلم للرعية، فكر في وجه الحيلة عما هو عليه ورده إلى العدل والإتصاف"⁽²⁾.

"ونحن ما نروض أنفسنا لمثل هذه الأمور إذا ظهرت من الملوك، إلا لنردهم إلى فعل الخير ولزوم العدل.

"ولا يسعنا في حكمتنا إبقاؤه على ما هو عليه"⁽³⁾

"غير أنني قد رأيت رأيا وعزمت عزما"⁽⁴⁾

"وقد صحت عزيمتي على لقاء دبشليم"⁽⁵⁾

إن امتلاكه لهاتين الجهتين سيمكنه من الانتقال إلى تحيين مشروعه الذي سيثير بعض التساؤلات تخص، في المقام الأول، ميزان القوى على مستوى القدرة المادية وهو ميزان في غير صالحه لوجود قوتين غير متكافئتين، وتخص؛ في المقام الثاني، أهليته في توقع وبرمجة العمليات الضرورية لمواجهة الملك أولا وصرفه عما هو عليه بعد إقناعه ثانيا. يعتبر بيدا مسألة الغطاء المادي للفعل محسومة سلفا ولا تشكل عائقا وذلك لإدراكه أن: "العاقل يبلغ بحيلته ما لم يبلغ

(1) ص. 12

(2) ص. 11

(3) ص. 14

(4) ص. 14

(5) ص. 14

بالخيل والجنود⁽¹⁾. إن بيدبا يثمن، على المستوى المعرفي، القوة العقلية المجسدة في الحيلة والتي تفهم في هذا المساق على أنها الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف في الأمور. يتعامل بيدبا مع دبشليم بمنطق مبني على التمييز بين القدرة المادية التي يملكها الملك والمتمثلة في الخيل والجنود والقدرة العقلية التي تنمهي مع المعرفة والمهارة في التدبير.

إن المنطق الإقناعي الذي يتجسد في حكايات كليله ودمنة وبشكل خاص في القنبرة والفيل، الغراب والبوم الأرانب والقيلة يطرح فيه الراوي القوة العقلية كبديل للقوة المادية. وسيلجأ إليها بيدبا لمواجهة الملك.

وتبدأ المواجهة بمجرد وصول بيدبا إلى فضاء القصر وممارسة الطقوس (وامتثاله بين يدي الملك مكفرا ساجدا له) المشيدة بالملك وعظمته. وتعكس هذه الطقوس في بداية الأمر علاقة حاكم بمحكوم يفضل من الناحية الاستراتيجية في بداية هذه المواجهة السكوت عن الكلام:

"استوى قائما وسكت"⁽²⁾

"وفكر دبشليم في سكوته"⁽³⁾.

"وقال له: نظرت إليك يا بيدبا ساكتا لا تعرض حاجتك ولا تذكر بغيتك"⁽⁴⁾.

في هذه اللحظة من السرد، نلاحظ أن بيدبا قلب العلاقة الأولى وأحدث شرخا في عملية التواصل أضحى الملك فيها تابعا له ينتظر موضوع النصيحة ويفكر في سكوته. من الواضح أن النص في بنيته يقترح، على المستوى التداولي، تأويلا للسكوت انطلاقا من الوضعية التلفظية التي يحتلها الملك. تأسيسا على هذا، فإن السكوت أحدث افتقارا لدى الملك وحركه للقيام بعملية التحري عن مضمون

(1) ص. 13

(2) ص. 15

(3) ص. 15

(4) ص. 16

النصيحة ومغزى الزيارة ومن ثم إعطاء معنى للسكوت. ولئن كان مضمون النصيحة قول فيه دعاء إلى صلاح ونهي عن فساد، فإن دبشليم أقصى هذا المنحى تماما من موضوع قول بيدبا لقناعته بالميثاق الذي فرضه على الرعية والذي لا يكفل حرية الرأي في أمر الملك:

"وإن يكن من أمر الملك، ومما لا ينبغي للملوك أن يبذلوه من أنفسهم ولا ينقادوا إليه نظرت في قدر عقوبته، على أن مثله لم يكن ليجترئ على إدخال نفسه في باب مسألة الملوك"⁽¹⁾. وإذا كان الملك قد استبعد حديث بيدبا عن الملك من خطابه، فإنه احتفظ بهذه الإمكانية وتوقع أنه سينظر في قدر عقوبة بيدبا لو أدخل نفسه في هذه المسألة. بهذه القراءة يكون الملك مقتنعا بحقيقة موضوع رغبة بيدبا، ومن ثم، فإنه سيج إطار بغيته في أمرين:

- "إما لالتماس شيء منا يصلح به حاله
- وإما لأمر لحقه فلم تكن له به طاقة"⁽²⁾.

إن هذا التأويل يضع بيدبا في وضعية فاعل لا يملك القدرة على تحقيق موضوعه. وبالتالي فإن قدومه يؤول في الحالتين على أنه طلب إعانة وتحرر عن موضوع جهة (القدرة على الفعل). وسكوته عن طلب الإعانة هو من منظور الملك صادر عن كون العلم والحياء إلفان متآلفين. وبالتالي، فإن حياؤه هو الذي أثناه عن طلب المساعدة. وإذا كان سكوت بيدبا حرك الملك للتفكير في أمر العلماء، فإن هذا يعني أن بيدبا افتك منه، بفضل سكوته، أولا: الاعتراف بفضل العلماء الذي يعد في حد ذاته تمجيذا لهم. ثانيا: استعداده للنظر في مساره السياسي وفي حقوق الحكماء ورفع الظلم عنهم. ثالثا: قابليته لنفي الجهل وتثبيت العلم كقيمة أساسية في المجتمع:

(1) ص. 16

(2) ص. 17

"ومن لم يستحي من الحكماء ويكرمهم ويعرف فضلهم على غيرهم، ويصنهم عن المواقف الواهنة، وينزههم عن المواطن الرذلة كان ممن حرم عقله، وخسر دنياه، وظلم الحكماء حقوقهم، وعد من الجهال"(1).

من هذه المنطقات، يمكن أن يدرك القارئ بأن الامتناع عن الكلام في مقام يقتضي الكلام هو كلام في حد ذاته واستراتيجية (حيلة) سخرها بيدبا لجس نبض الملك أولاً، وحمله، من دون أن يشعر، على قبول الحوار ثانياً؛ ومن ثم جره إلى تنازلات كان يستحيل أن يقوم بها قبل عزمه على الذهاب إليه ورفع التحدي بمواجهته.

"وأنا قد فسحت لك في الكلام"(2)

على الرغم من أن لهذا الملفوظ وقعا إيجابيا على نفس بيدبا إلا أن ذلك لم يكن كافيا لحمله على الحديث الصريح إلى الملك. ومع ذلك، فإنه استغل الفرصة، وبدأ يمهّد للحصول على تنازلات أخرى من جهة ولتتفّيز خطته والإعراب عن بغيته من جهة ثانية. ومن الواضح أن بيدبا، في هذا التمهيد، أقصى من خطابه الحديث عن العلاقة المتوترة بينه وبين الرعية وأملها في رفع الغبن عنها، ليتوجه إلى الذات الإلهية بدعوتها لمؤازرته للحفاظ على ملك دبشليم. إن الإعلان عن هذه الرغبة محمل برسالة تبعث على انشراح الملك وتخرجه في الوقت نفسه من الانقباض. ومن متاهات البحث عن جواب على هذه الزيارة المفاجئة لأن موضوع النصيحة لن يتضمن تبليغه رغبة الرعية في إحداث القطيعة مع الملك وإزاحته عن الملك. ونلاحظ أيضا أن بيدبا قدم في هذا المقام التلفظي فعلا تأويليا ينهض على تقويم إيجابي (كرم الملك، وإحسانه) للممارسة السياسية للملك في تعامله مع فئة العلماء. ويدخل هذا التقويم الإيجابي المسجل على مستوى الظاهر والمسخر لاستمالة الملك

(1) ص. 16

(2) ص. 16

في علاقة تضاد وتعارض مع التقويم السلبي الذي أفرزه تأويله لبرنامج الملك
للمسجل على مستوى الكينونة والتميز بالظلم والاستبداد قبل لقاء بيدبا بدبشليم.

إن بيدبا يعرب في بداية الأمر عن رغبته في عقد تواصل حقيقي بالملك وحتى
يتم له ذلك، فإنه لا يدخر جهدا لكسب ثقته. ويقوم على هذا الأساس بنفي كينونته
ليقدم للملك ظاهرا عاكسا بذلك وضعية صادقة للملك وهي في الحقيقة كاذبة من
وجهة نظر القارئ.

"قال الملك يا بيدبا تكلم كيف شئت: فإني مصغ إليك، وسامع منك، حتى
استفرغ ما عندك إلى آخره، وأجازيك على ذلك بما أنت أهله"⁽¹⁾.

إذا دققنا النظر في هذا الملفوظ، فإن الملك ارتقى بالتنازلات التي أشرنا إليها
سلفا إلى إقامة عقد انتمائي مع بيدبا والترخيص له بالحديث وإسداء النصيحة بكل
حرية ومكافأته. وسيكون لهذه الالتزامات التي قيد الملك نفسه بها تأثير كبير في
المرحلة الحاسمة التي سيواجه فيها الملك بخصوص مسألة الملك. وقد أدت هذه
الضمانات المتبادلة والمتسمة بالصدق إلى تلطيف أجواء الحوار ورفع القيود على
بيدبا في مقام يتطلب الحذر والتحفظ الشديد. ويظهر ذلك واضحا في الملفوظ الآتي:

"فلما سمع بيدبا ذلك من الملك أفرخ روعه، وسري عنه ما كان وقع في نفسه
من خوفه"⁽²⁾.

وإذا كان بيدبا مضطربا بفعل الخوف الذي يشكل عائقا حقيقيا لتبليغ معرفته
للملك، فإنه استطاع بمهارته وذكائه وحكمته أن يتجاوز هذه العقبة بتقديمه النصيحة
على أنها امتياز خص به الملك. وبالتالي، فإنها هبة تشكل شكلا من أشكال التواصل
الرامي إلى عقد رباط وصلي بالملك. في هذه اللحظة السردية، يشرع بيدبا في تنفيذ
برنامج في شكل اقتراحات على الملك. إن هذا البرنامج يختلف من حيث الطبيعة

(1) ص. 17

(2) ص. 16

عن البرامج التي ألفها القارئ في النصوص السردية حيث يسعى الفاعل المنفذ من خلال تحريره عن موضوع القيمة إلى الدخول في وصلة به. ولئن كان بيدبا يملك الموضوع (المعرفة) ويسعى من موقعه كمحرك، فإن النصيحة هي، من جهة، محصلة لقراءة سياسية في برنامج الملك الذي يعد هيئة مثقفة ومؤولة، وهي، من جهة ثانية، اقتراح لبرنامج آخر يهدف إلى تحقيق بغيتين أساسيتين:

(أ) البغية الأولى: يعبئ بيدبا كفاءة التي يفترضها النص لحمل الملك على الابتعاد عن القيم السلبية التي تتسم بها ممارسته السلطة السياسية وإقناعه بالدخول في وصلة بمجموعة من القيم ستكون لها انعكاسات إيجابية في إعادة بناء علاقة جديدة بينه وبين الرعية. تأسيسا على هذا، فإن بيدبا، من خلال اقتراحه النصيحة، يرغب في تأسيس الملك فاعلا منفذا في برنامج سياسي جديد كفيل بنقل الملك من وضعية فصلة عن الرعية إلى وضعية وصلة بها ونقله من سوء التدبير إلى حسن التدبير. وإذا دققنا النظر في هذه المسألة، فإننا نلاحظ أن تحريك بيدبا سيشتغل على مستوى كفاءة الملك في اتجاهين:

- أولا: تبليغه المعرفة في ممارسة السلطة.

- ثانيا: ترغيبه في تطبيقها.

إن مسعى بيدبا يكمن أساسا في محاولة الحصول على التزام من الملك بتنفيذ البرنامج المقترح. ويبدو الدور العاملي لبيدبا واضحا في النص؛ فهو في جميع الحالات يضع الملك بين اختيارين: القبول أو الرفض. إن حدوث الحالة الثانية تقضي إلى نتيجتين:

- النتيجة الأولى: تسلط العقوبة على بيدبا لأنه من منظور الملك اخترق حدود العقد بحديثه عن أمور الملك.

- النتيجة الثانية: يرفض رفضا قاطعا التطبيق ويخرجه من القصر. في كلتي النتيجتين يكون قد خرج من لوم يلحقه. إن تبليغ المعرفة يرتهن في وجوده إلى جهة

أساسية في كفاءة بديدا. إنها الوجوب (يجب عليه أن يبلغ الملك) الذي يشكل، فضلا عن كونه جهة، قيمة استخلصها من تأويله لخطابات العلماء الذين سبقوه:

"الواجب على الملوك أن يتعظوا بمواعظ العلماء. والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها، وتأديبها بحكمتها، وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم، ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج والخروج عن العدل. فوجدت ما قالت العلماء فرضا واجبا على الحكماء لملوكهم ليوقدوهم من رقدتهم"⁽¹⁾.

يمكن أن ننظر في هذه الملفوظات على أنها متضمنة، على الصعيد المعرفي، برنامجين أساسيين: يتصدر البرنامج الأول عامل جماعي يتحدد دوره بوجوب الاتعاظ. فهو من هذه الناحية خاضع للعامل الجماعي العلماء الذي يضطلع في البرنامج الثاني بمهمة تبليغ المعرفة المبنية على الحجة والصادرة عن تأويلهم للممارسة السياسية للملوك. إن مسألة تلقي المعرفة تتسم بالطابع الإلزامي. يعني أنه ليس للملك الحق في رفض النصيحة. فهو ملزم بالإصغاء والتنفيذ. ومن ثم، فهو مقيد بعقد إلزامي⁽²⁾ تكون فيه الرغبة في التنفيذ تابعة وتحصيل حاصل:

العقد الإلزامي = وجوب الفعل / ⇐ / الرغبة في الفعل.

من هذه الزاوية، فإن العلماء يملكون السلطة في اتخاذ قرار التوجيه السياسي كلما حدث خلل (حدوث الاعوجاج والخروج عن العدل) في تسيير شؤون الرعية. أما الملوك، فإنهم يشكلون الهيئة التنفيذية التي تطبق ما تقرر.

"فإن فسح في كلامي ووعاه عني، فهو حقيق بذلك وما يراه، وإن هو ألقاه، فقد بلغت ما يلزمني وخرجت من لوم يلحقني"⁽³⁾.

(1) ص. 23

(2) A. J. Greimas, J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, HU, Paris, 1979, 189.

(3) ص. 16

"فرايت أن أجود بحياتي، فأكون قد أتيت فيما بيني وبين الحكماء بعدي عذرا. فحملتها على التغيرير أو الظفر بما أريده"⁽¹⁾.

يقدم بيدبا في هذين الملفوظين الحالات الجديدة التي يتوقع أن يفرزها البرنامج الأساسي الخاص بمواجهته للملك. الحالة الأولى تنتج عن الفعل التحويلي الذي يمارسه بيدبا على الملك فيخرجه من وضع يكون فيه في فصلة عن المعرفة إلى وضع يكون فيه في وصلة بها. وإذا فشل في تحويل الملك الذي انتصب معارضا لأية رغبة في إسداء النصيحة، فإن هذا الفشل يولد حالة جديدة يكون فيها بيدبا قد شرف التزامه المتضمن في العقد الذي يربطه بفئة العلماء:

"والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها، وتأديبها بحكمتها، وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم، ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج والخروج عن العدل"⁽²⁾

وبالتالي فإنه يكون متحررا من عبء مسؤولية تبليغ الملوك:

"خرجت من لوم يلحقني"⁽³⁾.

ينظم بيدبا، في بداية المواجهة الكلامية، خطابه بضمير المتكلم ويتوجه به إلى الملك مباشرة:

"أيها الملك إنك في منازل آبائك وأجدادك من الجبابرة الذين أسسوا الملك قبلك"⁽⁴⁾.

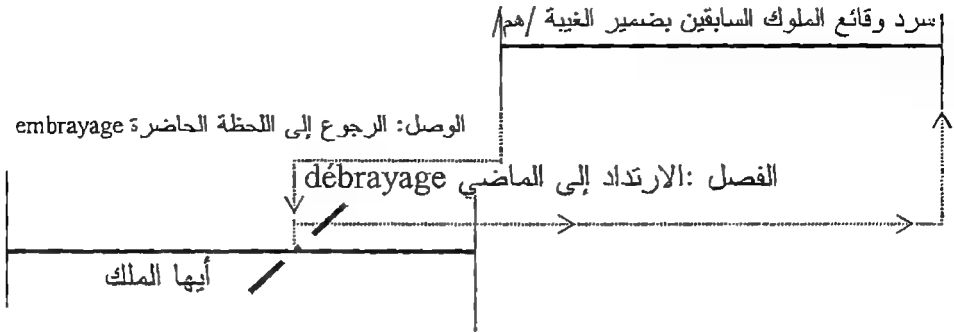
حتى نفهم الآلية التي يشتغل بها الملفوظ، نقدم الخطاطة الآتية:

(1) ص. 24

(2) ص. 23

(3) ص. 17

(4) ص. 19



يحدث اللافظ، في هذه الخطاطة، خرقاً زمنياً في اللحظة الحاضرة، يعلق الخطاب ليروي وقائع آباء وأجداد دبشليم. من خلال هذه الإضاءات، تتحدد أدوارهم العاملة في تشييد الملك وبناء القلاع والحصون وقيادة الجيوش. ويستند تحقيق هذه الأداءات إلى كفاءة سردية مفترضة. لم يقدم الراوي التفاصيل بخصوص الكيفية التي تم بها تحقيق هذه الأداءات المتنوعة. إن الحديث الموجز عنها هو بمثابة رسائل مشفرة يفترض فكها معرفة التفاصيل الدقيقة حول هذه الوقائع التاريخية. وبالتالي فإن الراوي مقتنع بأن الملك يملك الكفاءة لفك الشفرات. إنه من خلال هذا السرد الموجز يقدم للملك النقاط المعلمية الكبرى الخاصة بالممارسات السياسية للملوك السابقين. إن الراوي لم يسم هؤلاء الملوك ملكاً ملكاً. يقودنا بناء العامل الجماعي بهذا الشكل إلى فهم طبيعة ممارسته السياسية المتسمة بالتسيير الحسن لشؤون الرعية. تمثل هذه الممارسة على الصعيد الخطابي تشكلاً يضم مجموعة من المسارات الصورية يمكن أن نقدمها على النحو الآتي:

الممارسة السياسية للملوك السابقين



التسيير الحسن لشؤون الرعية



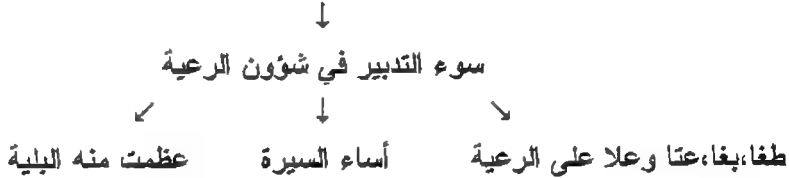
الاستعمال الحسن إلى من خولوه الإرفاق بمن ولوه حسن السيرة فيما تقلدوه⁽¹⁾

إن هذه المسارات التي تحيل وحدات صورها المضمونية على التدبير الحسن والمرونة في تقليد المهام وتكليفها بمن حسنت سيرتهم، تعمل على تحديد الشخصيات التي اضطلعت في برنامجها بمهمة إرساء قنوات الاتصال بالرعية وتشديد عالم يبعث على الانشراح: "وعاشوا الدهور في الغبطة والسرور"⁽¹⁾.

وقد عرض بيدبا بعض معالم هذا العالم المحقق في الماضي والمتسم بالحياة، على الملك ليرسم له بذلك نقطة ارتكاز دالة ومحملة برسائل تستهدف في المقام الأول عالما آخر أقامه دبشليم على أنقاض عالم جميل سابق. إن عالم دبشليم على النحو الذي يعرضه بيدبا عالم مضطرب ومنهار بفعل تمزق الوشائج التي تحكم الراعي بالرعية. وبالتالي فإن هذه الرسائل مسخرة لخلق التناقض بين عالمين: عالم يبعث على الحياة والانشراح وعالم يبعث على الموت والانقباض.

إن التشكل الذي يعمل على تجلية المستوى السردى تقدم مساراته صورا ليست منغلقة على نفسها بل إنها تتوسع لتحدث وحداتها تجانسا دلاليا يعمل على توصيف الطابع الوحشي للممارسة السياسية:

الممارسة السياسية للملك دبشليم



ويمكن أن نفهم هذه الصور في علاقتها بالصور السابقة المؤطرة للملوك السابقين بالنظر إلى العلاقة التي تربط الصعید السردى بالصعید الخطابى. إن عملية الربط هذه متصلة أشد الاتصال بالمسارات الصورية التي تحيل على وضعيتين سرديتين متميزتين ومتلاحمتين في الوقت نفسه.

(1) ص. 19

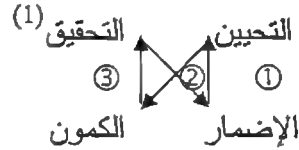
① تحدد الوضعية السردية الأولى بعامل جماعي، الملوك، الذي تعددت برامجها وتنوعت بتنوع معارفه في التسيير. وقد جاءت هذه المعارف نتيجة لاحتكاك الملوك السابقين بالعلماء الذين يحتلون في هذه البرامج موقع المرسل المحرك الذي يخطط ويقرر كلما لاحظ اعوجاجا أو خروجاً عن العدل. وإذا دققنا النظر في هذه المسألة، فإننا نلاحظ أن هذا العامل يتحدد عبر دورين أساسيين: يتمثل الدور الأول في تحريك وتفعيل كفاءة الملوك. إنه بحكم هامش المناورة الذي يتمتع به يفعلهم بتنصيبهم فاعلاً منفذاً في البرنامج السياسي. ويسخر هذا الفاعل فيه كفاءته لتحقيق الأداء السياسي الذي يتمظهر على المستوى الخطابي من خلال:

① الاستعمال الحسن إلى من خولوه

② الإرفاق بمن ولوه

③ حسن السيرة فيما تقلدوه

ويقودنا ضبط هذه المسارات إلى افتراض أربع مراحل غطاها الفاعل (الملوك السابقون) في أثناء اضطلاعهم بمهمة تنفيذ البرنامج السياسي. ويمكن أن تأخذ موقعها في المربع السيميائي على النحو الآتي:



يتحدد الإضمار على مستوى الكفاءة الجهائية بالرغبة في تسيير شؤون الرعية ووجوب رعايتها بالتدبير الحسن. أما التحيين، فإنه يتمظهر من خلال الجهات المؤهلة (معرفة الفعل، القدرة على الفعل) للفاعل في ممارسة فعله السياسي.

ويجسد الكمون الحالة الشعورية للفاعل واستعداداته النفسي الذي يمكنه من تحقيق القيم وإرساء قنوات التواصل بالرعية. ولئن كانت هذه المراحل الأساسية

(1) J.Courtès, *L'énonciation comme acte sémiotique*, Nouveaux actes sémiotiques, Pulim, Université de Limoges, n°58-59, 1998, p.24.

الضامنة صيغ وجود الفاعل السيميائي، متخفية في النص ولا تأبى أن تظهر بشكل صريح على المستوى السردى، فإن القارئ من خلال بعض المعطيات النصية المقيدة سلفا يستطيع أن يسلم بوجودها. وتتأكد هذه الفرضية بفعل الإنجازات التي حققها الملوك السابقون على الملك دبشليم. وما كان لهذه الأدعاء أن تتحقق في غياب كفاءة مفترضة.

② أما الوضعية السردية الثانية والتي تختم الرسم السردى، فإنها تأتي في الامتداد الطبيعي لأداء الملوك، وتتصب في النص بالفعل التقويمي للبرنامج السياسي. ويمكن أن نلمس ذلك من خلال ثلاثة مستويات:

أ/ في المستوى التيمي يعبر الملوك عن رضاهم وإنشراحهم بإنجازاتهم السياسية: "وعاشوا الدهور في الغبطة والسرور"⁽¹⁾.

ب/ المستوى الثانى، تضطلع الرعية بدورين عاملين. يتحدد الدور الأول من موقعها كمرسل إليه/ مستفيد من الإنجازات السياسية المحققة. ويتحدد دورها الثانى بالفعل التقويمي الذي تقوم به الرعية من موقع المرسل/المقوم لإنجازات الملوك: "فلم يمنعهم ذلك من اكتساب جميل الذكر، ولا قطعهم عن اغتنام الشكر"⁽²⁾.

ج/ يعد المستوى الثالث محصلة للمستويين السابقين. إن التقويم الإيجابي المحدد للمسار السياسى للملوك [سواء كان هذا التقويم انعكاسيا أو متعديا] هو بمثابة الحجة القاطعة التي يقدمها بيدبا لدبشليم لحمله على رآب الصدع الذي أفضى إلى إحداث شرخ في المتصل السياسى الضامن لعملية التواصل بين الحاكم والمحكوم.

من هذه المنطلقات، نزرع بيدبا في خطابه الججاجي إلى مواجهة الملك بالارتكاز على وضعيتين متميزتين. يمتد الزمن، في الوضعية الأولى، على مدى دهور بأكملها تعاقب عليها ملوك استطاعوا أن يشيدوا عالما متوازنا ومتوافقا مع

(1) ص. 19

(2) ص. 19

طموحات الرعية. أما الوضع الثاني الذي تتضاءل مدته الزمنية لتغطي برهة من الدهر متسمة بالاضطراب وتمزق القيم، فإنه ينتصب ليحدث التناقض بين مرحلتين منفصمتين. في هذه اللحظة من السرد، يحدث ببدا خرقاً زمنياً في المتصل السردى لينقل دبشليم من عهد مضى بكل إيجابياته وهو عهد الملوك السابقين، وينبري ليوجه خطابه في اللحظة الحاضرة (الآن، هنا) وفي صيغة ضمير المتكلم إلى الأنت. إنها معارضة سياسية متضمنة إدانة مباشرة للملك:

ب } "إنك أيها الملك (...) قد ورثت أرضهم وديارهم وأموالهم ومنازلهم التي كانت عدتهم، فأقمت فيما خولت من الملك وورثت من الأموال والجنود فلم تقم في ذلك بحق ما يجب عليك، بل طغيت وبغيت وعتوت وعلوت على الرعية، وأسأت السيرة وعظمت منك البلية"⁽¹⁾.

يقوم ببدا في هذا الملفوظ البرنامج السياسي للملك. وإذا كان هذا التقويم ينهض على القيم السلبية التي أفرزتها ممارسته السياسية، فإنه لا ينفصل على الإطلاق عن تقويمه الإيجابي للمسار السياسي للملوك السابقين. إن لخطاب ببدا عينا على الماضي الحافل بالإنجازات وعينا على الحاضر أيضا ولكنه حاضر تتسرب عبره صور الطغيان والعتو والعلو والبلايا. ويقودنا هذا المسار الصوري الخاص بالملك إلى افتراض مجموعة من البرامج السردية حركها الملك في الاتجاه المضاد لرغبات الرعية وطموحاتها المشروعة. إن ببدا في صناعة خطابه الحجاجي لم يعرض على الملك التفاصيل الدقيقة لممارسته السياسية ولم يعرض عليه أيضا وفي الوقت نفسه التفاصيل الدقيقة التي أدت إلى حدوث الأضرار التي لحقت بالرعية، ولكنه اكتفى فقط بذكر نتيجة الفعل السياسي الذي مارسه الملك على الرعية فخلق بذلك وضعاً يتسم عبر المسار الصوري الذي يحيل عليه بالاضطراب والموت. وهو وضع يدخل في علاقة تضاد بالوضع الذي أفرزته ممارسة الملوك

(1) ص. 19

السابقين والمتسم بالاستقرار والحياة. تأسيسا على هذا، يتم فصل الخطاب السردى في نص النصيحة على ثنائية أساسية تخترق النص وتمنحه التجانس الدلالي:

حياة عكس موت

ومن الواضح أن بيدبا الذي تنقل إلى القصر بمحض إرادته للدفاع عن الرعية ورغبتها في الوجود والحياة، فإنه لم يفعل ذلك بناء على تكليف مباشر صادر منها، بل من موقع قناعته بضرورة التغيير الهادف إلى استرجاع الحقوق الجماعية للرعية. ولئن كان هذا العامل الجماعي يفتقد في النص، وتحديدًا في المشروع المتضمن إساءة النصيحة للملك، إلى الدور الذي يمكن أن يضطلع به للدفاع عن حقوقه وتطلعاته المشروعة، فإنه في وضعية عاملية أخرى وفي عهد سابق، انبرى لخلع الملك الذي خلفه عليهم الإسكندر:

"... ولا ترضى الخاصة والعامة أن يملكوا عليهم رجلا ليس هو منهم ولا من أهل بيوتهم. فإنه لا يزال يستذلهم ويستقلهم. واجتمعوا يملكون عليهم رجلا من أولاد ملوكهم، فملكوا عليهم ملكا يقال له دبشليم، وخلعوا الرجل الذي كان خلفه عليهم الاسكندر"⁽¹⁾.

في هذا الملفوظ، تتصهر الخاصة والعامة في فاعل جماعي واحد يتحدد دوره على مستوى الترسيم السردية من خلال عملية التحري (تحقيق الأداء) التي يقوم بها ليرد الأمور إلى نصابها وبالتالي إعادة الاستقرار والكرامة للإنسان. إن رغبة الفاعل في خلع الملك تلقى مصدرها في عزمه على عزله. ويأتي هذا الفعل المحول، على الصعيد المعارفي، في الامتداد الطبيعي للقرار السياسي الذي اتخذ جماعيا (اجتمعوا). وعليه، فإن تنفيذ هذا القرار وتمليك دبشليم ومنحه الثقة جاء نتيجة لإجماع الخاصة والعامة (الفاعل المنفذ). يسكت النص في هذه الوضعية العاملة عن ذكر الإطار التنظيمي لهذا الاجتماع، ويسكت أيضا عن ذكر الأطراف الفاعلة في صناعة القرار. وإذا عقدنا مقارنة بين / أ / و / ب /، فإننا نلاحظ أن

(1) ص. 11

القرار الذي اتخذته بيدبا في الوضعية العامية /ب/ هو محصلة لعمل فردي اقتصر فيه على مشاورة الفئة الخاصة (تلامذته) وطلب معونتها لمواجهة الملك. إن اتصاله بالفئة الخاصة ومحاولة حملها على التنقل معه إلى القصر قد يكون صادرا عن دركه بأن الملك لا يرفض الاجتماع بها والإصغاء إليها وذلك لقناعته "بأنه يعرف فضلهم على غيرهم"⁽¹⁾. ويمكن أن نؤول غياب الفئة العامة من هذا برنامج الذي قرر بيدبا تنفيذه على أنه يتوافق مع طبيعة المشروع الذي لا يحتاج إلى قدرة مادية في المواجهة. وبالتالي فإن كفاءة بيدبا تنهض في المقام الأول على المعرفة التي ينبغي أن تسخر لإقناع الملك بضرورة سلوك سبيل الأسلاف وتتبع آثار الملوك قبله بإحداث وصلة بالمتصل السياسي:

"وكان الأولى والأشبه بك أن تسلك سبيل أسلافك، وتتبع آثار الملوك قبلك، وتقفو محاسن ما أبقوه لك، وتقلع عما عاره لازم لك، وشينه واقع بك، تحسن النظر برعيتك، وتسن لهم سنن الخير الذي يبقى بعدك ذكره"⁽²⁾.

ينزع بيدبا في هذا الملفوظ بخطابه لتوصيف وضع في زمن مضى تتسرب عبره مجموعة من القيم يتوافق فيها الحاكم والمحكوم، وهذه القيم التي تجسدها المحاسن وآثار الملوك السابقين حاضرة، إنها إرث وإذا كان الأمر كذلك، ينبغي أن يرثها الملك كما ورث الأرض والديار والأموال والمنازل (انظر ب أعلاه). بهذا المنطق الحجاجي، يمارس بيدبا فعله الإقناعي وسلطته المعرفية على الملك لحمله على تغيير سياسته. وتتصدر هذا التحريك الجهة الوجوبية المتضمنة تبليغ أمر بالتنفيذ "وكان الأولى والأشبه بك أن تسلك سبيل أسلافك. . .". غير أن هذا الأمر قد يقبله الملك أو يرفضه. إن المنطق الذي يشيد عليه بيدبا الخطاب الحجاجي يقودنا إلى اعتبار الرفض مسألة غير واردة لأن الملك يدرك أنه يستمد سلطته من الرعية التي أوصلته إلى الحكم (خولت من الملك) بهدف اقتفاء سياسة الملوك السابقين.

(1) ص. 16

(2) ص. 20

ويعني رفض نصيحة بيدبا الصادرة عن إشفافه عليه، بكل بساطة، سحب الرعية الثقة منه لخرقه العقد، ويلقى، في هذه الحالة، نفس مصير الملك السابق.

"فلم أتكلم بهذا ابتغاء عرض تجازيني به، ولا التماس معروف تكافئني فيه، ولكني أتيت ناصحا مشفقا عليك"⁽¹⁾.

يحدد بيدبا، في هذا الملفوظ، بدقة موضوع القيم الذي يسعى إلى تحقيقه في عملية التحري التي تتموضع على نظير المعرفة. إن الفاعل المنفذ في هذا البرنامج لا يسخر خطابه الإصلاحية في سبيل تحقيق مجموعة من القيم للملاية، وبالتالي فإن هذا البرنامج لا يمكن أن يشيد على بنية التبادل التي تقتضي بتقديم بيدبا خدمة للملك للحصول على مكافأة. تحتكم هذه البنية إلى النظام الخلقي الذي يقتضيه العقد المقترح على بيدبا في بداية اللقاء:

"قال الملك يا بيدبا تكلم كيف شئت: فأني مضغ إليك (...) وأجازيك على ذلك بما أنت أهل له"⁽²⁾.

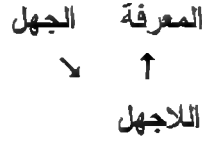
إن المكافأة هنا هي شكل من أشكال الإغراءات المادية التي لجأ إليها الملك لشل قدرته على القول في شؤون الملك.

ويعني رفض بيدبا هذا العرض خروجه من نظام والدخول في نظام خلقي آخر يهدف، من جهة، إلى تقديم النصيحة للملك مقابل الحصول على تنازلات تكفل الحقوق الجماعية للرعية ويهدف من جهة ثانية، على مستوى البنية العميقة للنص، إلى نفي الجهل وتثبيت المعرفة التي تنهض عليها الممارسة السياسية [فإن الجاهل المغتر من استعمل في أمور البطر والأمنية، والحازم اللبيب من ساس الملك بالمداراة والرفق]⁽³⁾.

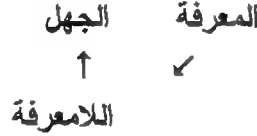
(1) ص. 20

(2) ص. 17

(3) ص. 20



ويتعزز هذا التأويل، على الصعيد العميق، بتقويم الملك السلبي لنصيحة بيدبا، وبالتالي رفض المعرفة، بوصفها جهة يحتكم إليها الفعل السياسي، كبديل للجهل:



ونلقى تجليات هذا المسار الدلالي في رد فعل الملك الحاد والمتوافق مع درجة التوتر العنيفة التي أحدثتها النصيحة:

"أوغر صدر الملك

← فأغظ له في الجواب" (1)

← 2 فأغرق الفكر فيه

3 فسلك فيه إلى استنباط شيء عرض له من أمور الفلك،

← 4 والمسألة عنه" (2)

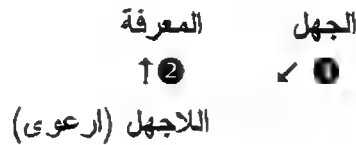
ونزواتها المدمرة، والقمع والبطش والرعب. فقامت على أنقاضه قيم جديدة

انتصبت لتحديث قطيعة جذرية مع ما مضى بنفي الجهل (1) وتثبيت المعرفة (2)

(1) ص. 20

(2) ص. 20

[وتفكر فيما كلمه به، فارعوى لذلك⁽¹⁾] على نحو ما يظهر ذلك واضحا في الترسمة الآتية:



من منطقات هذه الوضعية النهائية التي آل إليها النص، يثمن ديشليم المشروع الإصلاحي لبديبا بانخراطه في قيمه الأساسية التي تكفل الحقوق الجماعية، وإعادة تسيير الفعل السياسي في ضوءها بخلق انسجام بينه وبين الرعية. وتلقى تجليات حسن نية الملك في تشييد عهد جديد في استوزاره بديبا الذي جلس بمجلس العدل والإنصاف، يأخذ للذني من الشريف، ويساوي بين القوي والضعيف، ورد المظالم، ووضع سنن العدل⁽²⁾.

(1) ص. 20

(2) ص. 23

البيبلوغرافيا

-بيدبا، كلية ودمنة، ترجمة عبد الله بن المقفع، الطبعة الرابعة، مؤسسة المعارف، بيروت، 1983

-محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردى/نظرية قريماس (Greimas)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993.

-A. J. Greimas ,J. Courtés ,**Dictionnaire raisonné de la théorie du langage**, HU,Paris,1979.

-J. Courtés , **L'énonciation comme acte sémiotique**, Nouveaux actes sémiotiques ,Pulim,Université de Limoges, n°58-59,1998.

- إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، دار الدعوة، استانبول، تركيا، 1989.

دراسة تحليلية لرواية

نوار الملوذ

للروائي الجزائري واسيني الأعرج.

0-1 فاتحة الرواية^(*)

"قبل قراءة هذه الرواية التي قد تكون لغتها متعبة، تنازلوا قليلا واقرأوا تغريبة بني هلال. ستجدون حتما تفسيراً واضحاً لجوعكم وبؤسكم. ما يزال بيننا، وحتى وقتنا هذا: الأمير حسن بن سرحان ودياب الزغبى وأبو زيد الهلالي والجازية (...)، فمنذ أن وجدنا على هذه الأرض وإلى يومنا هذا والسيف لغتنا الوحيدة لحل مشاكلنا المعقدة (...).

وحتى لا أثقل عليكم وأبدو أتعس من أبي زيد الهلالي، أو الأمير حسن بن سرحان (من للتغريبة) أقول أن أحداث هذه الرواية من نسيج الخيال بشكل من الأشكال، وإذا ورد أي تشابه أو تطابق بينهما وبين حياة أي شخص أو أية عشيرة أو أية قبيلة أو أية دولة على وجه هذه الكرة الأرضية، فليس ذلك من قبيل المصادفة أبداً".

(واسيني الأعرج)

(*) "نوار الملوذ، تغريبة صالح بن عامر الزوفري"، دار الحداثة، بيروت، 1983. رواية للكاتب الجزائري واسيني الأعرج. ولد يوم 8 أوت 1954 بقرية سيدي بوجنان الواقعة على الحدود الجزائرية المغربية. نشأ في بيئة عائلية فقيرة. التحق بمدرسة القرية حيث تلقى تعليمه الابتدائي، ومنها انتقل إلى مدينة تلمسان لمزاولة التعليم الثانوي، ثم تحول سنة 1973 إلى جامعة وهران لتحضير شهادة الليسانس في الأدب العربي. وبعد تخرجه في سنة 1977، سافر إلى دمشق لمواصلة دراسته العليا، فحصل على شهادة الماجستير برسالة موسومة: "اتجاهات الرواية العربية في الجزائر" ثم على دكتوراه الدولة بالطروحة عنوانها: "تطور مفهوم البطولة في الرواية الجزائرية". ثم عاد إلى الجزائر ليلتحق بسلك التعليم الجامعي حيث يشغل حالياً أستاذاً في الأدب الحديث بجامعة الجزائر.

من تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته، وعرفه من أوله إلى غايته، علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد (...).

المقريزي : إغاثة الأمة في كشف الغمة

1. النظام السيميائي لفاتحة الرواية/البحث في مستويات النص وأشكال بنيته

تتصدر الفاتحة الرواية وتدرج ضمن ما يسمى عموماً بخارجيات النص. يتأكد هذا الطابع الخصوصي بإمضاءين (الأول للروائي واسيني الأعرج والثاني للمؤرخ المقريزي) هما بمثابة الحدود الفاصلة بين مقطعين نفترض أنهما يلتقيان دلاليا لتجسيد العلاقة بين السلطة والرعية.

ولئن كانت الفاتحة مستقلة عن النص الروائي وأحداثه وشخصه، فإنها ملحقة به زمنياً ومرتبطة به دلالياً.

نلاحظ، من خلال قراءتنا لفاتحة الرواية، أن نظامها يختلف اختلافاً جذرياً عن نظام النص الروائي، فهي كلام على كلام وممارسة فكرية على خطاب منتج يسمى فيها الكاتب الأشياء بأسمائها بغرض إقامة تواصل مباشر وشفاف مع القارئ، وبهدف تحريكه نحو القنوات التي سيمر بها حتماً نصه الروائي. إن هذه المنزلة المتميزة والخاصة التي يحظى بها الكاتب تجعله يتبوأ من الفاتحة موقع المرسل/المحرك الذي يسعى إلى إرساء قواعد الاتصال بالقارئ والتواصل معه في سبيل إقناعه بأمر يراه حقيقة تجسدها وقائع الرواية. من هذا المنطلق الأساسي تنزع الفاتحة نزوعاً برهانياً.

نفترض أن الفاتحة تقدم لنا تأويل الكاتب لخطابه وعالم روايته الدلالي والحوافز الحقيقية التي تختفي وراء تحركات شخصه ورغباتها.

انطلاقاً من المعطيات النصية، تحتوي الفاتحة على كل سمات الخطاب المعتبر كملفوظ: "يتوجه به شخص إلى شخص آخر وينظم ما يقوله في مقولة المتكلم"⁽¹⁾.

ونلمس هذا التوجه الصريح في النص في نزوع الأنا الكاتب (المتكلم) بخطابه إلى الأنتم [القراء]:

أ } قبل قراءة هذه الرواية التي قد تكون لغتها متعبة، تنازلوا قليلاً واقرأوا
لتغريبة بني هلال⁽²⁾.

يحمل الفعل "تنازلوا"، في هذا الملفوظ، شحنة دلالية خاصة. نقول لإنسان "تنازل" عندما نجبره على فعل شيء هو غير مقتنع به. والافتتاح هنا مقرون بقيمة النصوص الشعبية التي أضحت ثانوية بينما هي في الحقيقة تحتوي على العمق الذي لا يظهر لحقيقة ما يريد النظام تفاديه وعدم إظهاره لأن دلالاته خطيرة. تبدو الرسالة Message الموجهة إلى القارئ واضحة المعالم. إن الكاتب، من موقع المرسل/المحرك *destinateur / manipulateur*، وباستعماله صيغة الأمر في "تنازلوا" و"اقرأوا"، يقدم، من ناحية، التغريبة على أنها مرور اضطراري لفهم النص الروائي، ويؤسس، من ناحية ثانية، القارئ فاعلاً منفذاً في برنامج ملحق *programme d'usage* ذي طابع معارفي *cognitif* تكون الغاية منه إحداث وصلة بينه وبين تغريبة تشكل مرجعية نصية للرواية.

ولئن كانت القراءة هذا الفعل المعارفي الممارس على النص، فإن لغته المتعبة تعد محصلة طبيعية لفصلة *disjonction* القارئ عن التغريبة المنتجة لـ المعرفة.

(1) E. Benveniste, Problèmes de linguistique générale, Gallimard, Paris, 1974, T. 2, p. 79.

(2) واسيني الأعرج، نوار اللوز، تغريبة صالح بن عامر الزوفري، دار الحداثة، بيروت، 1983، ص. 5.

حتى يتحقق التواصل بين القارئ والنص وتزول الحواجز، وتُصير اللغة مرنة، مريحة، ينبغي أن يحدث تحول في كفاءة *compétence* القارئ يؤهله للانتقال من وضعية اللامعرفة إلى المعرفة.

ويعتبر هذا التحول الذي يدخل ضمن الإجراءات التشكيلية للكفاءة شرطا أساسيا تتوقف عليه الأبعاد الدلالية التي يمكن أن يستنبطها القارئ من النص السردي.

ب } "ستجدون حتما تفسيرا واضحا لجوعكم وبؤسكم. ما يزال بيننا، وحتى وقتنا هذا: الأمير حسن بن سرحان ودياب الزغبى وأبو زيد الهلالي والجازية (...)، فمئذ أن وجدنا على هذه الأرض وإلى يومنا هذا والسيف لغتنا الوحيدة لحل مشاكلنا المعقدة (...)"⁽¹⁾.

دل ذلك على أحداث الرواية:

ج } "وحتى لا أثقل عليكم وأبدو أتعس من أبي زيد الهلالي، أو الأمير حسن بن سرحان (من التغريبة) أقول أن أحداث هذه الرواية من نسيج الخيال بشكل من الأشكال، وإذا ورد أي تشابه أو تطابق بينهما وبين حياة أي شخص أو أية عشيرة أو أية قبيلة أو أية دولة على وجه هذه الكرة الأرضية، فليس ذلك من قبيل المصادفة أبدا"⁽²⁾.

وردت الكلمات المركزية في الملفوظ [ج]، وعلى المستوى الشكلي، بخط بارز وأكثر اسودادا:

/تشابه/،/تطابق/،/فليس ذلك من قبيل المصادفة أبدا/ لتؤكد القصدية (بوصفها نфия للمصادفة) من خلال عمليتي /التشابه/،/التطابق/، ولتُشعر القارئ بحدود رسالة الرواية التي تحيل على واقع يمثل مرجعها. ولئن كان الكاتب يقيم علاقة صدق

(1) الرواية، ص. 5

(2) الرواية ص. 5

بينهما ويخول لنفسه إخضاع النص إلى امتحان الحقيقة، فإنه ينتهي في الأخير إلى أن تطابق النص مع الواقع عملية مقصودة. ولا يعني التطابق هنا "إلا عمق الصلة الرابطة بين التاريخ والواقع، ومن خلال ذلك يتحقق الامتداد، فالتاريخ كواقع مضى يجد امتداده في واقع ما يزال حيا ومعيشا⁽¹⁾.

من هذه المنطلقات، وبناء على ما سبق، نلاحظ أن الخطاب البرهاني للمرسل/المحرك يشغل على نحو يكون فيه فهم الوضع الراهن مربوطا بقراءة الماضي. بعبارة أخرى، إن المرسل/المحرك يرغب في نقل القارئ من نص فاتحة الرواية إلى نص تغريية بني هلال. وتشكل هذه النقلة برنامجا ملحقا يرتكز القارئ على تجلياته الدلالية للدخول في وصلة بتأويل وضعه الاجتماعي الذي يقدمه المرسل على أنه يتسم بـ/الجوع/ و/البؤس/. يشكل التأويل هنا برنامجا أساسيا لا يتحقق إلا إذا امتلك القارئ الكفاءة المناسبة. وتعتبر المعرفة عنصرا من عناصرها الأساسية. إن المرسل يقدم القارئ على أنه يفتقر إلى المعرفة بوصفها موضوع جهة. وعليه، فإنه يضع القارئ أمام احتمال وارد عندما يقر بأن لغة الرواية قد تكون متعبة وأن دعوته للتنازل عن قراءتها ستدخله في وصلة بالراحة. غير أن الإشكال الذي يبقى قائما هو أن الدعوة للتنازل لا تستهدف تأويل لغة نص الرواية بل تأويل جوع القارئ وبؤسه. من هذه الزاوية، تعتبر قراءة الرواية برنامجا معلقا قد ينفذه القارئ وقد يعرض عنه مادام الهاجس الأساسي للمرسل المحرك هو تأويل وضع القارئ الاجتماعي. من هذه الزاوية أيضا، قد تنأى الفاتحة عن غايتها الأساسية المتمثلة في تقديم أجواء الرواية وتوجهاتها الدلالية المحورية. غير أن المرسل يستدرك في النهاية الموقف ويورد نصا ثانيا نعتبره امتدادا للأول، من حيث حملته الدلالية، وإطارا له في الوقت نفسه من حيث الحدود السياسية التي تشكل مرتكزا أساسيا في تأويل وقراءة الظاهرة الاجتماعية:

(1) آفاق، مجلة اتحاد كتّاب المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1990، العدد الأول، ص. 116.

د } "من تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته، وعرفه من أوله إلى غايته، علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد (...)"

من الواضح أن هذا الملفوظ مأخوذ من المقدمة التي وضعها تقي الدين أحمد بن علي المقرئ لكتابه إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات في مصر⁽¹⁾ الذي يؤرخ للمجاعات بوصفها ظواهر مادية اجتماعية صرفة. ويرد وجودها إلى ضعف السلطة السياسية وتمزقها وانصراف الحكام عن الاهتمام بشؤون الشعب وانقطاع كل صلة بينهما. ضمن هذا الإطار الدلالي العام يشغل الملفوظ [د] ويتماهي بشكل قصدي ومبرر مع المحاور الدلالية لنص فاتحة الرواية. وفهم هذا الملفوظ، ينبغي أن نسلم بوجود منظورين. يخص المنظور الأول اللافت المنتج لهذا الملفوظ. أما المنظور الثاني، فإننا ندركه من خلال زاوية النظر التي يقدم منها نص المقرئ ويضعه في السياق الدلالي لفاتحة الرواية.

1.1.1 المنظور الأول

نلمس حضوره في توقيع المقرئ بوصفه فاعلا في فضاء مرجعي [مصر] يلاحظ بعد عميق تأمل حادثا، ويصوغ أجوبة لفهمه في ملفوظ يقوم على ثلاث مرتكزات أساسية تبدو واضحة في التقطيع الآتي:

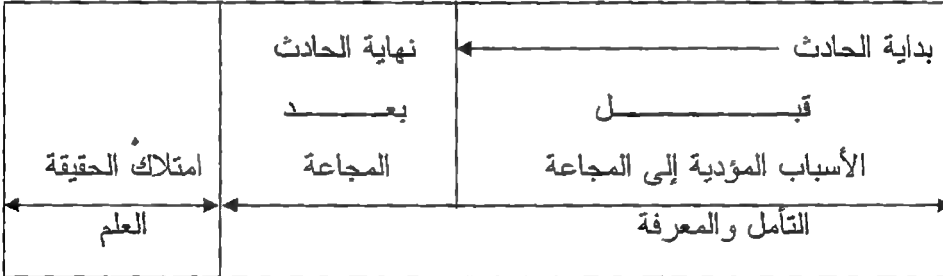
[من تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته]، و[عرفه من أوله إلى غايته]، [علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد].

حتى نفهم التجليات الدلالية لهذا الملفوظ، سنرصد الوحدات المعنوية التي تدخل في تشكيل التأمل والمعرفة والعلم من منطلق ترائي:

(1) تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، إغاثة الأمة بكشف الغمة، أو تاريخ المجاعات في مصر، دار ابن الوليد ودار الجماهير الشعبية، دمشق، 1956.

إذا استندنا إلى لسان العرب، نلاحظ أن التأمل يستعمل للدلالة على النظر في الأمر بتثبت وتأن من ناحية ، والمشاورة من ناحية ثانية⁽¹⁾. أما المعرفة فإنها تقال لإدراك الجزئي أو البسيط⁽²⁾. ويأتي العلم كمحصلة للتأمل والمعرفة بما أنه يحيل على إدراك الشيء بحقيقته في بعديه الكلي والمركب⁽³⁾.

ويطلق العلم على مجموع مسائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة. من هنا نلاحظ أن الخطاب المعرفي يتضمن ثلاثة مستويات أساسية مسخرة لصياغة أجوبة على الإشكاليات التي تطرحها قراءة وفهم الحادث. ينبغي أن ننظر إلى الحادث، في هذا المقام، على أنه المصيبة التي نزلت بالناس؛ وتحديد المجاعات التي نسفت المجتمع المصري. تأسيسا على هذا، يقوم هذا الملفوظ على ثلاثة برامج: /التأمل/ و /المعرفة/ و /العلم/؛ يشكل الأول والثاني في تعالقهما برنامجا ملحقا يسخر لإدراك الأسباب التي أدت إلى حدوث المجاعات [المعادل الموضوعي للحادث]. إن الحادث بوصفه موضوعا للتأويل لا يمكن أن ندرك تجلياته الدلالية إلا إذا وضعناه في صلب بنية زمنية يتحدد المابعد فيها الماقبل:



(1) ابن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، دار الجيل، دار لسان العرب، بيروت، 1988، مادة: أمل.

(2) إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، إستانبول، تركية، 1989.

(3) نفسه.

يوضح التأمل والمعرفة الشروط الضرورية لامتلاك الموضوع الذي يتحدد عبر عملية التحري quête المتسمة بالطابع السياسي. يسعى المرسل المحرك إلى إقناع القارئ بأن المصيبة التي نزلت على الفاعل الجماعي [أهل مصر] محصلة لسوء تسيير الحكام. وبالتالي فإن فهم آليات تسيير السلطة مرهون سلفا بتأسيس فاعل ممتلك لكفاءة تنهض أساسا على التأمل والمعرفة. ويمكن أن نلاحظ في هذا المساق أن الخطاب ينزع منزعا علميا بما أنه يفضي إلى تحديد طبيعة العمليات التي ينتظم وفقها فهم الحادث بوصفه ظاهرة اجتماعية. يخضع هذا الخطاب لعمليات ثلاثة: أ) فهو يقدم الحادث كمشروع تفكير وكأي ممارسة علمية فإنها تحتكم إلى الثاني والثالث في الأمر والمشاورة. إن التأمل بوصفه ممارسة فكرية يشمل لحظتين أساسيتين: بداية الحادث ونهايته وتتسرب عبرهما الأسباب التي أفضت إلى حدوث الحادث في السياق التطوري وعلى امتداد زمني خاضع لمبدأ السببية. ومن الواضح أن الحادث محصلة للعملية التحويلية المنتجة للوضع الراهن والتي يتم من خلالها إعادة بناء، من خلال العناصر الملاحظة، الأفعال التي أسهمت بشكل أو بآخر في إفراز وضع خطير يؤدي في جميع الحالات إلى الموت. انطلاقا من المعطيات النصية، نلاحظ أن المعرفة هي في الواقع قراءة ثانية تتم عبرها عملية البناء. هذه القراءة خاضعة للمنطق المعكوس. فهي تبدأ من التأمل في نهاية الحادث، ثم تتوغل من منطلقات كشفية لتفضي إلى أولياته. إذا استندنا إلى لسان العرب، نلاحظ أن المعرفة لا تدرك من المنظور السيميائي في القدرة على برمجة العمليات الضرورية لتحقيق الأداء. ينبغي أن ننظر إلى المعرفة هنا استنادا إلى المرجعية التراثية التي تضبط حدودها الدلالية. وبالتالي فإنها إدراك جزئي يفضي بالضرورة إلى الإحاطة بالكلية إحاطة تمثل أرقى ما يصل إليه العلم. انطلاقا من هذا التحليل الأولي، يمكن أن نحدد خاصيتين لهذا الخطاب مناسبتين للحظتين من التنظيم السردية. تتمثل الخاصية الأولى في السياق الذي يتم فيه امتلاك الموضوع عن طريق التأمل أولا والمعرفة ثانيا [الكفاءة]. أما الخاصية الثانية، فإنها تتحدد عبر مسار يقود إلى الإدراك الكلي للحادث الذي تقف وراءه أسباب لا ينأى تأويلها عن الإطارين السياسي والاقتصادي. يمكن أن نحدد هذا التنظيم انطلاقا من

منظورين. يتقدم المنظور الأول بوصفه حداً لبرنامج امتلاك المعرفة السياسية. يهدف هذا البرنامج إلى التحري عن موضوع معارفي *objet cognitif* بوصفه موضوع جهة يؤهله امتلاكه للتأويل السياسي والاقتصادي للوضع الاجتماعي المضطرب. وبالتالي يسعى المرسل إلى نقل كفاءته إلى المرسل إليه: المتأمل. وحتى يحقق أداء التأويل فهو ملزم بقراءة الوضع في ضوء معطياته الاقتصادية والسياسية المنصهرة في الموضوع المعارفي. شراء المناصب والمراكز الحكومية بالمال بغض النظر عن الجدارة والأهلية. يقول المقريري "السبب الأول وهو أصل الفساد. ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة، كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال، بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل. فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلى ما لم يكن يأمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة، لتوصله بأحد حواشي السلطان، ووعده بمال للسلطان على ما يريده من الأعمال"⁽¹⁾. وتتمثل الهبة المضادة في دفع ما عليهم من دين تجاه السلطان وسد حاجتهم. إن التغطية المالية للحاجات تؤدي إلى رفع الضرائب ومصادرة أموال أهل الريف الذين دفعهم هذا الوضع إلى الهجرة. فتتقلص المساحات المزروعة تقلصاً يؤدي إلى قلة المنتجات الزراعية وارتفاع أسعار الموجود منها، وبالتالي تحدث الضائقات الاقتصادية التي قد تؤدي إلى المجاعات. إن السلطان من موقع قوته ورغبة منه في تنمية ثروته يعرض المناصب السياسية وفي دوائر خاصة للبيع وفي مقابل ذلك يتحول الزبون إلى فاعل سياسي متحرر من القيود القانونية ومفتقد إلى الجدارة التي تمكنه من تسيير أمور الدولة التي يفرضها المقام السياسي. يجسد مشروعه رغبته في استرجاع ما وهبه للسلطان من جهة وتنمية ثروته من جهة أخرى. في هذا المساق ندرنا البعد التداولي للفعل السياسي. بهذه القراءة التي تنهض على التحليل الاقتصادي للوضع، يحرك المقريري القارئ في هذا الاتجاه ليندخله في وصلة بمعرفة جوهر الاقتصاد والإشكال القائم بين السلطة والشعب.

(1) تقي الدين أحمد بن علي المقريري، المصدر السابق، ص. 41.

2-1 المتظور الثاني

يخص المتظور الثاني إمكانات النظر إلى موضوع المعرفة السياسية على أنها تشكل رهان التواصل بالنسبة للكاتب والقارئ. يتبدى هذا الرهان إذا وضعنا نص المقريري في صلب الاستراتيجية الخطابية للمرسل المحرك الأساسي واسيني الأعرج. ذلك أن إرادته للمقريري ليس مجانا. فهو يشتغل كعنصر أساسي في القصة القصيرة التي يروي أحداثها للقارئ والتي تشكل إطارا عاما للقصة الكبيرة نوار اللوز. نعتبر فاتحة الرواية نصا سرديا لأنها تتطلق من وضع مضطرب يتجلى عبر الحادث ويسعى المرسل إلى تقديم المساعدة للقارئ الجماعي المحتمل بوصفه فاعلا متضررا من الوضع. غير أن المساعدة المتمثلة في تحريكه لمعرفة أسباب الحادث ومن ثم تمرده على السلطة السياسية يصطدم بالسيف بوصفه لغة السلطة المسخرة لحل المشاكل المعقدة.

هكذا فإن المرسل المحرك ينتقل في خطابه من الأنتم ("ستجدون حتما...") إلى ال/نحن/ لي طرح إشكالية التواصل بين السلطة والشعب من جهة والسلطة والمتقف من جهة أخرى وعلى اعتبار أن الكاتب يعد واحدا من رموزها. يضع القارئ والحكام وجهها لوجه. وتحسم هذه المواجهة بالسيف.

2. سيميائية العنوان

إذا كانت الفاتحة تشكل ظاهرة تناصية تستمد دلالتها من تلاقي النصوص، فإن العنوان، على عكس ذلك، يثير تساؤلات لا تلقى لها إجابة إلا مع نهاية الرواية.

نسجل في بداية هذه الدراسة أنه من غير العادي أن نسخر اسم نبات لعنوان [نوار اللوز]، إذا لم نفكر مسبقا بأن هذا الاسم محملا برسالة إلى القارئ. ذلك أن اختيار اسم نبات كعنوان لرواية ليس مجانا.

من الواضح أن عنوان الرواية "توار اللوز" يعد العنصر الأول الذي يظهر على واجهة الكتاب كإعلان إشهاري محفز للقراءة⁽¹⁾. سنبدأ تحليلنا من هذه الوظيفة الإعلانية، واستنادا إلى التعلق المفترض بين العنوان والنص.

تعتبر العلاقة الأولى [عنوان/نص] المدركة عبر هذا التدرج الرسالة الأولى التي يسعى الكاتب إلى تبليغها للقارئ بهدف إثارة فضوله وتحريضه على قراءة النص. نلمس رغبة الكاتب في تحريك القارئ في الطريقة التي بنى بها العنوان. عنوان أساسي [توار اللوز] يحيل على الأمل والحياة وعنوان فرعي [تغريبة صالح بن عامر الزوفري] يحيل على الغربة والموت. ويمكن أن نفترض منذ البداية أن الجمع بين الضدين مسخر لخلق إشكال لدى القارئ وتحفيزه، ومن ثم، تأسيسه فاعلا في برنامج يقوم فيه بعملية التحري عن حقيقة الإشكال في سبيل تعويض الافتقار. إن بنية العنوان بهذا الشكل دالة، بمعنى أن التغريبة بتجليات قيمها الدلالية المحيلة على الموت تنضوي تحت النوار الذي يفضي إلى الحياة انضواء يحتوي فيه الأمل اليأس. انطلاقا من هذه المعطيات يمكن أن نفترض أن نهاية التغريبة تكون سعيدة.

أما العلاقة الثانية الممتدة من النص إلى العنوان فإنها تقودنا إلى النظر في النص على أنه آلة لقراءة العنوان⁽²⁾ machine à lire le titre وبناء الدلالة: "...يدخل العنوان والرواية في علاقة تكاملية وترايبية: الأول يعلن، والثاني يفسر، يفصل ملفوظا تفصيلا يعيد من خلاله أحيانا وفي خاتمة الرواية إعادة إنتاج العنوان في كلمة بوصفها مفتاحا للنص"⁽³⁾.

من هذه المنطلقات النظرية، نلاحظ أن عنوان الرواية يتقدم في البداية بوصفه سنادا مستقلا لا يملك من مضمون دلالي سوى ما يحدده له القاموس. ويبقى، مع ذلك، خاضعا لاحتمالات دلالية مختلفة يصعب علينا إزاءها ترجيح هذا الاحتمال

(1) C.Duchet, "La fille abandonnée" et "La bête humaine" éléments de titrologie romanesque, Littérature n° 12, p.52.

(2) J.Ricardou, Nouveaux problèmes du roman, Seuil, Paris, 1978, p.148

(3) C.Duchet, art.cit, p.51.

الدلالي أو ذاك. ولتفادي هذه الصعوبة، نسلم في البداية بأن مضمون العنوان ليس ثابتاً، ولا يمكن أن نضبط تجلياته الدلالية في استقلاليته. ومن هنا وجب علينا أن نرده إلى نظام النص الذي ينتمي إليه. وعلى هذا الأساس، يستمد العنوان قيمته الدلالية من العلاقة البنائية relation structurelle التي يقيمها مع عناصر هذا النظام. حتى ندرك حد هذه القيمة، سنلجأ إلى معاينة المقاطع السردية التي تتوافق وتتلاقى معها دلالياً.

نسجل في البداية أن أول وحدة معجمية [اللوز] من عنوان الرواية ظهرت مقترنة في الملفوظ الآتي بـ/انطفأت/ و/البراعم/:

"انطفأت براعم اللوز..." (غرقت القرية بكاملها في لحظة حزن طويلة)⁽¹⁾.

تترابط وحدة المضمون في صورة /انطفأت/ (براعم اللوز) وتتجانس مع لحظتي /الغرق/ و/الحزن/ لتتموضع على الصعيد التناظري plan isotopique للموت على نحو ما يجسد ذلك الحقل المعجمي الآتي الذي تحيل عناصره مباشرة على مأساة أهل القرية:

الرعود تقصف	أ 1	المجموعة γ
الغيوم تتصادم	أ 2	
رأى (...) ليلاً ينزل على القرية بظلام غائم	أ 3	
الفقراء يبكون	ب 1	
غابت ألوان الشجر الجميلة	أ 4	
سقطت الأنجم الجميلة	أ 5	
نامت القرية على القرحة باكراً ⁽²⁾	ب 2	

(1) الرواية، ص. 98

(2) نفسه، ص. 98

ويتم فصل هذا الحقل المعجمي دلاليا على النحو الآتي:

اضطراب + عنف	أ'1	المجموعة 1
كآبة + عنف	أ'2	
كآبة	أ'3	
فقر + حزن	ب'1	
قبح	أ'4	
عنف + قبح	أ'5	
حزن	ب'2	

نلاحظ، من خلال قراءتنا لهذا الحقل، أن الوحدات المعنوية الصغرى المعبر عنها بالرموز { أ'1، أ'2، أ'3، أ'4، أ'5 } تجتمع لتفرز منظرا فيه اضطراب وعنف، وكآبة وقبح يعكس شعور أهل القرية الحزين { ب'1، ب'2 }، وكأن الطبيعة تعبر، من خلال هذه الوحدات، بطريقتها الخاصة عن آلام وأحزان أهل القرية على فقدانهم لابنهم العربي. وتقودنا هذه الملاحظة للقول بأن لحظة ولادة نوار اللوز (العنوان) توقفت بانطفاء براعمه لتعكس الجو الحزين الذي يهيمن على القرية، ولتفسر لماذا لم يشهد عنوان النص في هذه اللحظة بالذات (التي وصل إليها السرد) ولادته الحقيقية، ولتدل أيضا على تعطل البنية النصية على توليد وإنتاج العنوان. إن هذه الوضعية التي تتجسد بحضور الوحدات المعنوية الصغرى المقترنة ببعض عناصر العنوان في السياق النصي والمحيلة على عالم الموت ستشهد تحولا عميقا في نهاية الرواية يؤدي إلى ولادة النوار (عالم الطبيعة) بشكل متزامن مع ولادة العنوان (عالم النص)، ولادة الحملان (عالم الحيوان) ومع فكرة إنجاب قبيلة من الأطفال وقارة من البنات الطيبات على نحو ما يظهر ذلك جليا في الحقل المعجمي الآتي:

<p>"في آخر العمر يا صالح تستعاد الأبوة المفقودة"⁽¹⁾.</p> <p>"سننزوج، وننجب قبيلة من الأطفال وقارة من البنات الطيبات (...). سنجد شغلاً ونبني من هذا الركam حياة رائعة"⁽²⁾.</p>	<p>أ</p>	<p>المجموعة β</p>
<p>"... ظهر على أغصان شجيرات اللوز نوار أبيض، صغير، كان يبشر بربيع جميل". "الحملان الجديدة التي ولدت في الزرائب ... تهتز (...). شجيرات اللوز العملاقة وتتمايل".</p>	<p>ب</p>	
<p>{ الناس فرحون (...). أملهم الكبير كان في نوار اللوز"⁽³⁾.</p>	<p>ج</p>	

يمكن أن نصوغ هذا الحقل دلاليًا على النحو الآتي:

<p>{ خصب + أمل + حياة</p>	<p>أ</p>	<p>المجموعة β</p>
<p>{ خصب + براءة / أمل + جمال</p>	<p>ب</p>	
<p>{ فرح + أمل</p>	<p>ج</p>	



عالم الحياة

(1) المرجع السابق، ص 209.

(2) نفسه، ص 210.

(3) نفسه، ص 210.

يقدم هذا الحقل جردا عاما للوحدات الدلالية المتماسكة في الخطاب والمعتبرة كمؤشرات على مجموعة السمات التي تظهر كآلة حقيقية لإنتاج عنوان الرواية [المجموعة β : أ، ب ← ج].

يمكن أن نستنتج أن هذه الوحدات تؤدي إلى إحداث مجموعة من المفعولات الدلالية *effets sémantiques* لتوليد عالم الحياة المدرك في تعارضه مع عالم الموت [المجموعة γ]:

عالم الحياة عكس عالم الموت⁽¹⁾

نشير هنا إلى أن العلاقة بين العالمين المؤسسة على التقابل *opposition* عبارة عن رفض ونفي دائم لواحد من الحدين [عالم الموت] بهدف تأكيد الآخر [عالم الحياة]. إن العلاقة بين القطبين علاقة إقصاء⁽²⁾.

استنادا إلى المجموعة γ ، نلاحظ أن العناصر الطبيعية التي اجتمعت لتحدث اضطرابا وعنفا وتوقفا في الحياة تعبيرا عن الجو المأسوي المهيمن على أهل القرية، تلتقي مرة ثانية لتحدث جوا مغائرا [المجموعة β]'، فيه سعادة وأمل وخصب وحياة، تعبيرا عن الوصلة المحققة بين صالح ولونجة [المجموعة β ، أ]. تأسيسا على هذا، يأتي العنصر الطبيعي الممثل في صورة النوار [المجموعة β ، ب] ليولد وحدة مضمونية تغطي فكرة الأمل والخصب [المجموعة β ، أ1] المتجانسة مع عودة الأبوة المفقودة [المجموعة β ، أ]. وتتسع صورة الأبوة إيجابيا لتقترن بصورة الإنجاب [المجموعة β ، أ] ("سننجب") التي تتقدم كتوسع لقيمة الحياة المتعارضة مع قيمة الموت.

لا بد أن نشير في هذا المساق إلى أن الوضعية التي يجسدها العنوان [المجموعة β ، ج]، وهي الوضعية التي يصل إليها النص في نهاية القصة متقدمة

(1) تدل عكس على العلاقة التقابلية والخلافية.

(2) أن إينو، مراهنات، دراسة الدلالات اللغوية، ترجمة أوديت بيتيت وخليل أحمد، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، 1980، ص. 95.

جدا ومقلوبة. حتى يستعيد صالح أبوته المفقودة، ينبغي أن يحقق الوصلة بينه وبين لونها.

إن نوار اللوز [المجموعة β ، ج]، في مظهره السيميائي وما يحمله من قيم (السعادة والأمل)، جاء ليعكس أولا هذه الوصلة وليعبر عن الدورة الدلالية للنص وذلك في جانب من جوانبها.

تقودنا هذه الاستنتاجات للتسليم بأن ولادة العنوان وما تحمله من تحولات وتفرعات دلالية خضعت على نحو ما رأينا ذلك للنمو السردي والخطابي للقصة. ويدفعنا هذا التسليم للقول بأن نص رواية نوار اللوز المتماسك يعتبر آلة حقيقية لإنتاج العنوان.

أما العنوان الفرعي الثاني لهذه الرواية تغريبة صالح بن عامر الزوفري، فإننا نفترض توافق مضمونه مع العنوان الأساسي في أبعاده الدلالية المنضوية تحت الثنائية الضدية:

موت عكس حياة

حتى نتأكد من هذه الفرضية، نشير في البداية إلى أن التغريبة في الرواية تتفاعل نصيا مع السيرة الهلالية. فهي تدل على انتقال أبناء هلال بن عامر من نجد العدية إلى الغرب واستقرارهم النهائي فيه بدافع الحفاظ على كيانهم وصون بقائهم. إنها تغريبة إجبارية وليست اختيارية لأن البقاء في نجد يعني بكل بساطة الهلاك الجماعي نتيجة الجذب. وبالتالي، فإن الانتقال من هنا (الفضاء العائلي) إلى هناك (الفضاء الأجنبي) يعكس من ناحية افتقارهم إلى القدرة على البقاء ورغبتهم في البقاء ووجوب تنقلهم. إن اقتران الوجوب بالفعل تنقل يعكس الطابع الإلزامي في تنفيذ البرنامج الأساسي للتغرب. وإذا كان التحري عن الموضوع لا يعكس الرغبة في الحياة (الاستجابة للقدر الكبير من المطالب)، فإنه يعبر على الأقل عن الرغبة في البقاء والوجود. من هذه الزاوية، تلتقي السيرة الهلالية بالتغريبة في الرواية.

ولئن كانت الهجرة القسرية إلى الهناك جماعية في السيرة، فإنها فردية في الرواية؛ ونستشف ذلك من خلال العنوان الذي يتم فيه التأكيد على نسب صالح: تغريبة صالح بن عامر. يعمل العنوان على تأكيد قرابة صالح للأبناء الهالين وانتمائه إليهم. ومن هنا يأتي صالح في الامتداد الطبيعي لهؤلاء. إن الأحداث المتعاقبة عبر الحقبة الزمنية الطويلة الممتدة من عهد الهالين (السيرة) إلى زمن صالح (الرواية)، وإن كانت تبدو في الظاهر مختلفة فإنها في العمق تشكل حدثاً واحداً يتمهى في الهجرة والتغريب الذي يعني "النفي عن البلد الذي وقعت فيه الخيانة"⁽¹⁾. وعليه، فإن صالح لم يتغرب نتيجة للجفاف وانقطاع أسباب العيش، بل لأنه أحس في قرارة نفسه أنه حرم من حقه وطعن في أعز ما يملك وأن القيم التي دافع من أجلها وهو يجاهد ضد الاحتلال غيبتها سلالة بني هلال وصارت "تفرض على أبنائها التغريب لتستفيد فئة من السلالة ضد السواد الأعظم منها. وصالح بن عامر جزء من هذا السواد وصورة عن ممارسي التهريب العديدين"⁽²⁾.

إن عنوان الرواية يتموضع في صلب هذه الدلالة المركزية وفي إطارها ستفرز دلالات أخرى سنعاينها من خلال قراءتنا للنص.

3. البنية السردية وتجلياتها الدلالية في رواية نوار اللوز

3-1 مدخل نظري

نسلم في بداية هذا البحث بأن تنظيم الوحدات البنائية في النص السردى يخضع لواحد من المبدأين الأساسيين: فهو إما أن يكون تابعاً لمبدأ السببية *causalité* المؤسس على التسلسل الزمني *chronologie*، وإما أن يكون قائماً على مبدأ

(1) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد الكريم العزباوي، مراجعة إبراهيم السامرائي وعبد الستار أحمد فراج، ج2، مادة غرب، مطبعة حكومة الكويت، 1967، ص. 476.

(2) سعيد يقطين، السيرة والرواية: نوار اللوز لواسيني الأعرج نموذجاً في: آفاق، مجلة اتحاد المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1990، ع1، ص. 118.

التتابع succession⁽¹⁾. استنادا إلى هذا المرتكز النظري، سدرس رواية نوار اللوز بوصفها متتالية من الأحداث événement المنظمة وفق مبدأ السببية مولين في ذلك أهمية قصوى لطبيعة المشروع الذي تبنى عليه هذه الأحداث وتنظم في "متتالية زمنية متماسكة"⁽²⁾.

إن ضبط علاقة الأحداث بالمشروع، سيساعدنا على تحديد نظام القوى المتصارعة في القصة. وعليه، ينبغي أن نميز في صلب في هذا النظام من جهة، بين البطل وهو الشخصية التي تضفي على الحدث الطابع الاندفاعي باعتبارها قوة اندفاعية على حد تعبير سوريو⁽³⁾، ومن جهة أخرى، بين القوة المعارضة force opposante التي تعمل على إفشال مساعيها⁽⁴⁾. وتستمد القصة histoire دينامييتها من المواجهة التي تتم بين مختلف هذه القوى.

2-3 البناء الداخلي للنص

استنادا إلى مفهومي الحركة mouvement (المستعملة للدلالة على تغيير الوضعية الاستراتيجية) والقوة، يمكن أن نضبط المكون السردي composante narrative على النحو الآتي:

تبدأ رواية نوار اللوز في المقطوعة أ ب [رسم 1]⁽⁵⁾ بمتتالية من الملفوظات تعكس الوضعية المتردية لصالح وبطالته. ومع بداية هذه المقطوعة، تتحرك عملية تحري صالح في اتجاه البحث عن منصب شغل.

(1) Tomachevski. B. V "Thématique" in Théorie de la littérature, Textes des formalistes russes et traduits par T. Todorov, Seuil, Paris, 1965, p. 267 .

(2) C. Bremond, La logique des possibles narratifs, in Communication 8.

(3) E. Souriau, Les deux cents mille situations dramatiques, Flammarion , Paris , 1950 .

(4) O. p. 55

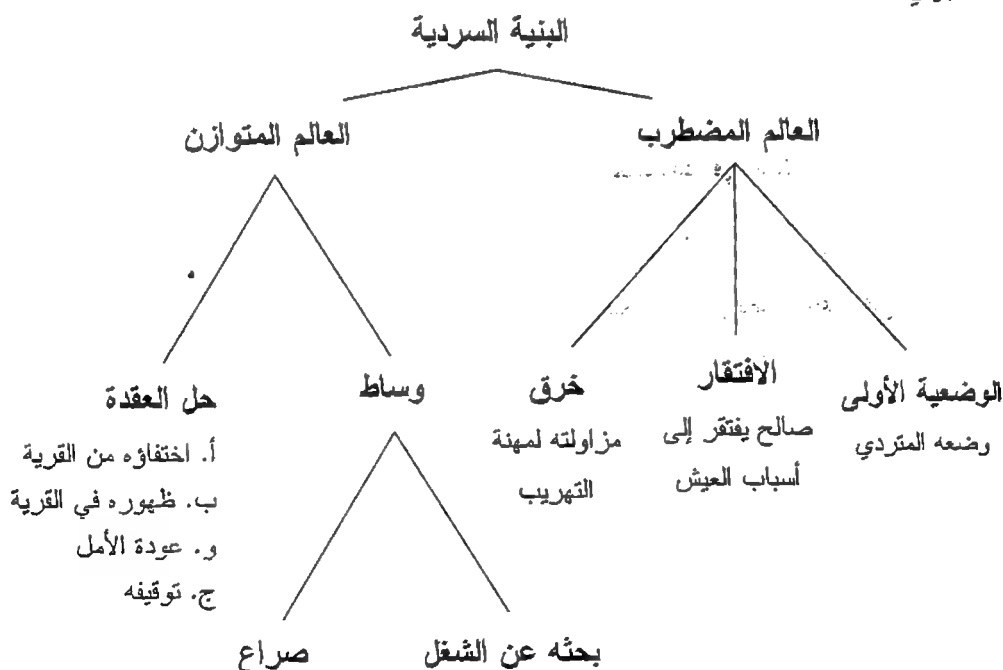
(5) أنظر الملحق 1.

وينتهي هذا الوضع المضطرب في المقطوعة ج ح [رسم 1] إلى حالة توازن جاءت نتيجة لظهور فكرة التهريب. ولكن سرعان ما تأتي قوى لتضرب هذا التوازن وتخلق توتراً جديداً بتوقيف صالح وذلك في نهاية المقطوعة ج ح.

وتعود الرواية من جديد إلى نقطة التوازن مع إطلاق سراحه وتأكيد رغبته في تهريب البضائع وبيعها لتجدد الدورة ويبدأ التحري عن منصب شغل. تنتهي عملية البحث بالفشل، ثم اليأس وفقدان التوازن المعبر عنه بالاختفاء من القرية [رسم 1، هـ و].

ومع ظهور صالح في نهاية الرواية [رسم 1، وي]، تأخذ الأحداث مجراها في اتجاه خلق التوازن يبعث على الأمل والحياة [2. 2، المجموعة β].

استناداً إلى النحو السردى⁽¹⁾، يمكن أن نصوغ هذا المكون في الخطاطة الآتية:



(1) Thomas G. Pavel, La syntaxe narrative dans les tragédies de Corneille, Klincksieck, Paris, 1976 .

من خلال ضبطنا للمحاور العامة للرواية، يمكن أن نلاحظ أن البنية السردية، في بعض جوانبها الأساسية، تبرز منذ البداية مواجهة بين طرفين متضادين؛ الفاعل صالح الذي يقوم بدور المهرب والفاعل المضاد الذي يؤدي دور الجمركي.

تقودنا صياغة البنية بهذا الشكل إلى التساؤل عن طبيعة موضوع القيمة objet de valeur الذي تتصارع من أجله هذه القوى. بعبارة أخرى، ما هو الموضوع الذي يملكه الفاعل ويريد الفاعل المضاد anti-sujet تملكه.

تبدو الإجابة في الظاهر بسيطة غير أننا، في العمق، نلقاها في غاية التعقيد ولا نستطيع أن نفك الإشكال إلا باللجوء إلى المنظور الذي يتبناه كل طرف في الصراع.

أ-المنظور الأول [الجمركي]: إن المنظور الذي يتبناه الجمركي لا يظهر فاعلاً مضاداً. فهو يمارس مهنة شرعية تخول له مراقبة البضائع عبر النقاط الحدودية. إنه يملك الحق في حجز البضائع المهربة وإحالة صاحبها إلى العدالة طبقاً للإجراءات القانونية المعمول بها. غير أن الراوي يخرج من هذا المنطق ويميل إلى التركيز على إمكانية سرديّة أخرى على نحو ما سنلاحظ ذلك في المنظور الثاني.

ب-المنظور الثاني [صالح]: يعتبر صالح سلوك الجمركي ممارسة موجهة ضد حقه في الوجود. يؤدي منعه من تهريب البضائع ورفض حقه في العمل [الشرعي] إلى خلق شروط تدميره. ذلك أن تجريده من البضاعة يعني بكل بساطة تجريده من الخبز:

-"والله يا حماده نريد الخبز فقط. حاجة خفيفة. شوية كتان، ..."(1).

يمكن أن نسلم بأن النص يذيب رهان الصراع في موضوع قيمتي واحد هو الخبز. ويتحول الجوع في هذا السياق إلى مرسل حقيقي للصراعات المعلنة في الرواية:

(1) الرواية، ص. 19.

"لا شيء في هذا الحي غير البرد والجوع..."⁽¹⁾.

إن الصراع بين الفاعل والفاعل المضاد يستدعي تبريرات مناسبة لوجوده تقتضي برنامجا سرديا يضئ الأسباب الحقيقية التي تقود صالح إلى النظر في سلوك الجمركي على أنه ممارسة تدميرية لشخصه.

حتى نوضح هذه المسألة، ونعرف رهان الصراع بينهما، سنلجأ إلى وضع جدول يتضمن العناصر المرتبة حسب ظهورها التسلسلي في النص، ونحاول بعد ذلك فحص العلاقات التي تربطها في سبيل الكشف عن التجليات الدلالية للمقاطع السردية.

4

(1) نفسه، ص. 35.

الجدول 1

المسارات	المسار أ	المسار ب
الصفحة		
ص. 8 أ1	قادها الجوع إلى التهريب	
ص. 11 أ1	...لكنني كبرت فقيرا...	
ص. 16 أ1	...وحين يدخل الجوع ويرد المساء عيوننا...	
ص. 17 أ2	ذات صباح، نردم أحياء تحت أنقاض هذه البراقة.	
ص. 17 أ2	...الميزيرية الكحلاء والتربانكو والموت.	وأولاد لاليجو ينتفخون ب1
ص. 18 أ3	نحن ندفع الثمن من لحمنا	هم يلعبون اللعبة القذرة حتى النهاية ب2.
ص. 18 أ3	نسقط دائما ضحاياها	وراء هذه العمليات الضخمة رجال قديرون ب'2...
ص. 18 أ3	نحن نسقط	وهم آخر من يمكن أن تلصق به التهمة ب'2. أنا متأكد أنهم كبار، وراءهم من يحميهم، يجنون أرباحا مفرجة ب'2.
ص. 19 أ4	لو وجدنا شغلا بسيطا (...) ما أكلتنا مخاوف الحدود.	
ص. 19 أ5	لا شيء في هذا الحي غير الجوع والبرد	
ص. 24 أ5	نأكل حرفة الجوع	كل يا السبايبي أرزاق الفقراء ب3
ص. 26 أ5	سنضطر تحت ضغط الجوع أن (...) نهجر إلى الحدود البعيدة.	

الجدول 1 [تابع]

المسار ب	المسار أ	المسارات الصفحة
١	الجميع يفتح عينيه على البؤس ويغمضها عليه.	ص. 27 أ6
	مجبرون أن نسرق أو نموت جوعا.	ص. 28 أ6
	إنني لا أهرب إلا لأعيش.	ص. 28 أ6
حول بيته إلى سوق حرة ب4.	الميزيرية الكحلأ والتهريب	ص. 33 أ7
يداه طويلتان، معارفه في العاصمة بعدد النجوم ب5		ص. 40
	يا ابن البلدة الفقر والقحط.	ص. 53 أ7
	هكذا نأتي حفاة عراة جياعا.	ص. 76 أ7
	الطفولة أكلها الفقر، الفقر قتلنا.	ص. 77 أ7
	طفولتي الجائعة.	ص. 78 أ8
أياديه طويلة حتى العاصمة ب6		ص. 94
	تضور الأطفال جوعا.	ص. 98 أ8
	الأطفال الفقراء أكلهم الفقر.	ص. 99 أ8
.	أنا فقير وجائع.	ص. 102 أ8
	أكلهم الجوع والفقر.	ص. 142 أ9
له معارف كبيرة وكثيرة الفوق ب7.		ص. 145
يلعبون بدمنا ويوزعونه على أغنياء البلد أوراقا وكبرهات ومراقص. ب8		ص. 152

جدول 2: المحاور الدلالية

المسار ب	المسار أ	المسارات الصفحة
	جوع، تهريب	ص. 8 أ1
	فقر	ص. 11 أ1
	جوع، برد	ص. 16 أ1
	موت	ص. 17 أ2
خيانة، رفاهية	بؤس، تهريب، موت	ص. 17 أ2
تهريب، نجاح	ظلم، خسارة	ص. 18 أ3
قوة، غنى، نفوذ	فشل	ص. 18 أ3
حصانة، نجاح، نفوذ، حصانة، غنى	فشل	ص. 18 أ3
	بطالة، تهريب	ص. 19 أ4
	جوع، برد	ص. 19 أ5
استغلال، غنى	تهريب، جوع	ص. 24 أ5
	جوع، هجرة، تهريب	ص. 26 أ5
	بؤس	ص. 27 أ6
	سرقه بطالة موت	ص. 28 أ6

جدول 2 [تابع]

المسار ب	المسار أ	المسارات	الصفحة
	تهريب ← حياة	أ ⁶	ص. 28
ب ⁴ غنى	بؤس، تهريب	أ ⁷	ص. 33
ب ⁵ نفوذ			ص. 40
	فقر	أ ⁷	ص. 53
	فقر، جوع	أ ⁷	ص. 76
	فقر	أ ⁷	ص. 77
	جوع	أ ⁸	ص. 78
ب ⁶ نفوذ			ص. 94
	جوع	أ ⁸	ص. 98
	فقر	أ ⁸	ص. 99
	فقر، جوع	أ ⁸	ص. 102
	جوع، فقر	أ ⁹	ص. 142
ب ⁷ نفوذ			ص. 145
ب ⁸ استغلال			ص. 152

يكتسي الجدول [2] أهمية خاصة. إنه يمكننا من ضبط الآلية التي ترسي بها الوحدات المعنوية شبكة دلالية في صلب النص.

يمكن أن تكشف عن علاقات التقابل الأساسية التي تحكم الوحدات المعجمية المثبتة في الجدول [1] من خلال تحديدنا لمفهوم السيم Sème. فينو:

"عنصر دلالي (...) لا يظهر على حقيقته إلا في علاقته بعنصر آخر مغاير؛ إن وظيفته خلافية ليس إلا، وعليه لا يمكن أن يدرك إلا في صلب مجموعة عضوية، في إطار البنية⁽¹⁾.

استنادا إلى هذا التعريف، يستمد كل عنصر في الجدول [2] قيمته الدلالية من تعالقه بالعناصر الأخرى. وعليه، يستحيل أن ندرك معنى السيمات أ¹، أ¹، أ¹، أ²، أ²... أ²... أ² [جدول 2، مساراً] بقطع النظر عن علاقته التقابلية بـ ب¹، ب²، ب²، ب²... ب² [جدول 2، مسار]. وتفسر لنا هذه العلاقات التقابلية والخلافية الثنائية الضدية بين المسار [أ] والمسار [ب].

يبدأ المسار أ [جدول 2] بوضع سيمي /الجوع/ و/التهريب/. تتمثل وظيفة السيم الأول في إبراز التناقضات التي يعاني منها صالح؛ فهو يعاني من الفقر [أ¹] والظلم [أ²] والبؤس [أ²]. ويأتي التهريب كحل مؤقت لهذه التناقضات.

لا يمارس صالح مهنة التهريب رغبة منه في الربح والاعتناء على نحو ما يحقق ذلك الرجال القديرون [جدول 1، ب²]. فهو لا يريد أن يملك سوى ما يقيم به الأود.

هكذا تتأرجح الوحدات المعنوية الصغرى في المسار [أ] [جدول 2] بين الموت والرغبة في البقاء. لا تعني هذه الرغبة تحقيق السعادة وتنمية الثروة ولكنها تعني تشبثه، وبكل ما يملك من قوة، ما يضمن له الوجود [لا موت non-mort].

تأتي وحدات البرد [أ¹] والجوع [أ¹] والموت [أ²] لتشكل مساراً سورياً يغطي فكرة اللاحياة في الحي. وتجد هذه الوحدات امتدادها الطبيعي في حي البراريك المعادل لفضاء الموت:

(1) J. Courtés, Introduction à la sémiotique narrative et discursive, Hachette, Paris, 1976, p. 46

-الذهاب إلى الحدود.

-الوصول.

-شراء البضائع.

-الرجوع.

-المطاردة.

/بؤس/ عكس /رفاهية/

/موت/ عكس /حياة/

/وفاء/ عكس /خيانة/



المسار [أ] عكس المسار [ب]

تَقْتَرِن الوحدات المعنوية في المسار [ب] بفئة لا تملك صورة اسمية figure nominale، وغالبا ما ترد نكرة في صيغة الجمع ومتبوعة بملفوظ حالة يعكس وصلة الرجال بجهة القدرة: رجال قديرون [مسار ب: ب'2، جدول1] أو في شكل ضمير [يحيل على الفاعل المنفذ] ملحق بفعل: هم يلعبون [مسار ب: ب'2، جدول1] يثبت القيم السلبية التي تؤمن بها هذه الفئة. غير أن الصورة الاسمية لهذه الفئة تتحقق في /السبايبي/ الذي يعد رمزا من رموزها.

ولئن كانت العلاقة التي تربط ضمير المتكلم في ب'2 [جدول1] بضمير الغائب [هم] ذات طبيعة تراتبية nature hiérarchique، فإن استعمال ضمير الغائب يعبر عن رفض صالح لهذه الفئة ومعارضته لقيمها. فهو يرفض الحوار معها ليعلن صراعه ضدها وتمرده عليها. على هذا الأساس، يجسد المساران أ،ب [جدول1، 2] التقابل بين فئتين متناحرتين: فئة تؤكل وفئة تأكل وتتفخ؛ فئة عبرت عن إيمانها بالثورة لقيت مصيرها في البؤس والشقاء والموت، وفئة عبرت عن خيانتها للثورة تستفيد وتحتكر التجارات الكبيرة مع كبار المسؤولين⁽¹⁾

(1) الرواية، ص. 18

يعكس المساران [أ] و[ب] إذن حالة التناقض القصوى المدعمة بمفعول الحقيقة التاريخية في النص، والمتمثلة في /أولاد لاليجو/ [جدول 1، مسار ب، ب1]. يحيل هذا التنظيم الاسمي syntagme nominal على la légion التي تطلق:

"على الذين ما يزالون يتعاطفون مع فرنسا"⁽¹⁾.

تتماهى وجهة نظر الكاتب، في هذا الملفوظ، مع منظور الراوي. فهو يخرج التسمية من النص، يضعها في الحاشية، يردها إلى أصلها ويديرها في سياقها الاجتماعي التاريخي: تملك هذه الفئة الغنية معادلا موضوعيا في الواقع؛ ذلك أنها موجودة حقيقة في المجتمع. تعاطفت مع المستعمر في زمن مضى [خبر لا يحتمل الكذب] واستفادت من تواطؤها في الزمن الحاضر مع "كبار المسؤولين".

إن الصفة كبار جاءت متقدمة على الاسم لتعكس، أولا، المرتبة العليا التي يحتلها المسؤولون المتورطون مع الفئة الخائنة في هرم السلطة، ثانيا، التغلغل الأفقي لهذه الفئة في صلب النظام السياسي محدثة بذلك اختلالا في موازين القوى وتعطلا في الدورة العادية لهذا النظام يعكس القطيعة الموجودة بين الحاكم والمحكوم [جدول 1، مسار ب، ب8]:

"يلعبون بدمنا ويوزعونه على أغنياء البلد أوراقا وفيلات وكباريات ومراقص"⁽²⁾.

يحكم هذه الوحدات المضمونية عالمان دلاليان: عالم الفقر والموت، وعالم الغنى والحياة. يسخر /الدم/ بوصفه رمزا للموت لتحقيق المتعة أولا ولتجسيد الدرجة القصوى التي يصل إليها التعذيب ثانيا. من هنا، يتحول المسؤول إلى شخصية سادية تتمتع بالآلام الآخرين⁽³⁾.

(1) نفسه، ص. 17-152

(2) نفسه، ص. 17-152

(3) A. j. Greimas , Du sens II , Essais sémiotiques , Paris , 1983 , p. 242 .

وتقوى هذه المتعة بتوزيع الهبات الكمالية إلى غير مستحقيها.

على هذا النحو، يضع صالح الفئة التي ينتمي إليها طرفا في الصراع مع الفئة الحاكمة. يتبلور هذا الصراع، كما لاحظنا ذلك، في السياق التحويلي المؤسس على ثنائية /الأخذ/ و/العطاء/⁽¹⁾ المجسدة لتواطؤ الفئة الحاكمة مع الأغنياء ضد فئة الفقراء.

يشكل التواطؤ والتوزيع الجائر للثروات نقطة تلاق بين الماضي والحاضر وتبقى العلاقة واحدة وفي جميع الحالات وإن تغير الزمن:

"لو كانت أراضي نجد خصبة ووزع خصبها بالعدل ما ركبت الجازية سرج عودها ونقلت مضارب خيامها إلى حدود الموت"⁽²⁾.

يكتسي الارتداد في هذا الملفوظ أهمية بالغة باعتباره فعلا يحقق الترابط التاريخي على صعيد النظير الاقتصادي: هؤلاء يوزعون الخصب وأولئك يوزعون الفيلات: إن الفاعل الجماعي [فئة الفقراء] في كلتي الحالتين واحد والنتيجة واحدة: التهريب والهجرة والموت. لا يلتقي الماضي بالحاضر إلا ليكرس انعدام التواصل بين الحاكم والمحكوم. وهذا يقودنا للقول بأن المسار [أ] والمسار [ب] [جدول 1، 2] لا يلتقيان أبدا. ويجسد توازيهما الصراع القائم بين الفئتين والحصار الذي ضربته الفئة الغنية على الفئة الفقيرة.

ولئن كان هذا الحصار على، صعيد الظاهر *paraître*، غائبا، فإنه على صعيد الكينونة *être* مكرس تكريسا يعكس غفلة الحاكم عما يجب أن يقوم به:

"سيزور الوالي المنطقة كالعادة إذن سيزينون الشوارع يذبحون الذبائح يشنون ويعود الوالي مسرورا جازما بأن الرعية تمشي باستقامة وقد ينسى مهمته"⁽³⁾.

(1) Jean Claude Coquet , Le discours et son sujet , Klincksieck , Paris , 1985, p. 115

(2) الرواية، ص. 21

(3) نفسه، ص. 145

تشتمل الوحدات السردية، في بداية هذا الملفوظ، على الزيارة الاستطلاعية التي يقوم بها الوالي للقرية [ويكون الهدف منها إقامة التواصل مع الرعية في سبيل معالجة المشاكل التي يتخبطون فيها: جدول1، مساراً]. غير أن هذا البرنامج سرعان ما يعلق ليفتح على برنامج جديد يخص التحضير الرسمي لاستقبال الوالي.

استناداً إلى المعطيات النصية، يركز البرنامج الجديد على ضمير الغيبة هم [يزينون، يذبحون، يشوون] بوصفه فاعلاً جماعياً يقتصر دوره على تنفيذ الأوامر المرهونة في وجودها إلى هيئة سردية *instance narrative* فاعلة تتحكم في آليات تحويل القرية من منظرها القبيح إلى منظر جميل. ويمكن أن نفترض أن زيارة الوالي للمنطقة تتم بناء على:

أ- دعوة رسمية يوجهها المسؤول الأول على القرية [الهيئة السردية الفاعلة: رئيس البلدية] للوالي بهدف معالجة الأوضاع المتردية التي تعاني منها الرعية.

ب- رغبة الوالي في تفصي حقيقة شؤون الرعية.

من الواضح أن هذه الإمكانيات السردية غير واردة في النص على طول الخط السردى. ويبدو رئيس البلدية [كهيئة سردية مضمرة] فاعلاً في التحويلات التي تتضمنها الوحدات السردية الآتية:

[1] تزيين الشوارع

[2] ذبح الذبائح

[3] الشواء

تأسس على الاستنتاجات السابقة [جدول2،1، مسار أ]، يشتغل الديكور الخارجى للقرية في الملفوظ [1] كقناع يخفي كينونة الرعية ويوحى في الظاهر بالمنظر الجميل للقرية الذي يتبدى على أنه مطابق (?) للوضع السعيد المتوافق مع سيم *sème* / الغنى / (الملفوظان [2]،[3]). يسعى رئيس البلدية إذن إلى تثبيت الحالة الآتية:

لا كينونة + ظاهر

انطلاقاً من المعطيات النصية [جدول 2، مسار أ]، نلاحظ أن هذه الحالة كاذبة ولا تعكس الوضع الحقيقي لأهل القرية. ومع ذلك، فإن رئيس البلدية استند إليها ليمارس فعله الإقناعي faire persuasif على الوالي في سبيل حمله على الإقناع بأنه مؤهل ويؤدي واجبه على أحسن وجه.

إزاء هذا النشاط المكثف [ديكور، ذبح، شواء]، يجد الوالي نفسه أمام أحد الأمرين:

- إما أن يستسيغ اللعبة، ويخضع لقواعدها، يأكل المشوي. إن هذه الإمكانية السردية مثبتة في النص وتتجلى على المستوى الخلقي axiologique في السرور [وعاد الوالي مسروراً] بوصفه قيمة تيمية thymique⁽¹⁾ تعبر عن ارتياح الوالي لرئيس البلدية وثقته به. وتعتبر أيضاً، على المستوى التقويمي، عن اعترافه بأدائه⁽²⁾.

- وإما أن يرفض قواعد اللعبة، يسقط القناع، ويقوم بعملية تحقيق، من خلال الاتصال المباشر بالرعية، تولد برنامجاً سردياً مضاداً يتأكد الوالي عبره فيما إذا كان الظاهر مطابقاً فعلاً للكينونة.

نلاحظ أن هذه الإمكانية السردية غير واردة في النص، ويكتفي الراوي بتقديم وجهة نظر صالح في الملفوظ الآتي:

"وقد ينسى مهمته"

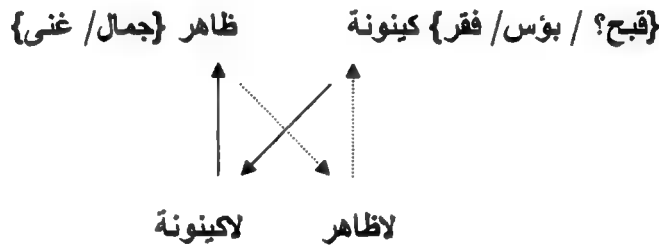
يعد نسيان المهمة تقويماً سلبياً لنشاط الوالي. إنه يعكس غفلة الحاكم عن الرعية وانقياده لاحتكار التجارات وتواطؤه مع أغنياء البلد [جدول 1، المسار ب، 8]، ويعكس أيضاً شعور صالح إزاء الوضع المتردي الذي آلت إليه القرية، وما

(1) Joseph Courtés, Analyse sémiotique du discours, Paris , 1991, p. 33 .

(2) Op,pp. 98-99 .

يترتب عنه من فقر، وبؤس، وجوع، وبرد. وهي صور تضيف على القرية منظرا قبيحا.

يمكن صياغة حالات وتحويلات مساري الحاكم وصالح انطلاقا من مربع سيميائي carré sémiotique نبين فيه الدورة الدلالية للعبة القبح والجمال المتمفصلة على صعيدي الظاهر والكينونة والتي تشيد عليها وضعية كل فاعل في المسار السردي الذي ينتمي إليه:



يصف الراوي في البداية [جدول 1، مسار أ] وضعا يتسم بقساوة العيش في القرية مما يضيف عليها جوا حزينا ومنظرا قبيحا. غير أن هذه القرية تعرف تحولات سطحية تكشف عن ديكور جديد يعطي للقرية منظرا جميلا يوحي بالتغيير الجذري للبنية الاجتماعية. وتظهر هذه الرسالة التي يريد رئيس البلدية تمريرها للوالي في المربع السيميائي على النحو الآتي:

{الرعية تمشي باستقامة} ينونة ظاهر

↑ ↙

لا كينونة

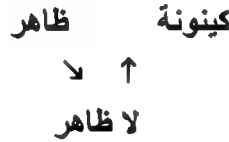
وحتى يتم تبليغ هذه الرسالة، يجد رئيس البلدية نفسه مضطرا لانتقاء المدعوين في الحفل الرسمي. بعبارة أوضح، حتى لا ينفصح أمره لا بد أن يفرض حصارا على الفئة الكبيرة المتضررة في القرية والتي تعاني من البرد والفقر والبطالة. إن هذه النقلة من الكينونة إلى الظاهر مروراً بنفي العنصر الوسيط:

اللاكينونة [كينونة ← لا كينونة ← ظاهر] هي في الواقع إقصاء للفئة المتضررة إقصاء يستطيع رئيس البلدية بفضلها أن يظهر الحالة الكاذبة على أنها صادقة ويفتك منه التقويم الإيجابي لبرنامجها:

"الرعية تمشي باستقامة"

والحقيقة أن هذا التقويم يحدث لصالح مفارقة عجيبة: كيف يمكن للشوارع أن تزين والذبائح تذبح وتُسوى و"الزنكات تقطع رؤوس خلق الله"، والرعية تأكل حرفة الجوع ويعبر الوالي عن سروره؟ كيف يوضع ديكور جميل في حي البراريك القبيح؟

إن صالح مدرك لهذا التناقض الموصوف، ومقتنع بأن الوالي لا يرقى إلى معرفة كينونة القرية والرعية بسبب لغة الإقصاء التي أضحت الشكل التواصل الوحيد المهيمن في أوساط المسؤولين. ويتقدم الملفوظ: "وقد ينسى مهمته"، المعبر عن وجهة نظر صالح، بوصفه أطروحة تنفي الظاهر المزيف وتثبت الكينونة الحقيقية للرعية:

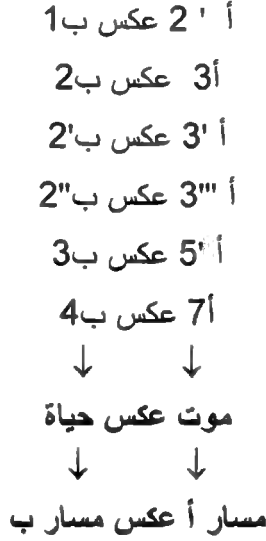


تكشف لنا هذه الدورة عن نظام اللعبة الذي تعتبر السلطة محركه الأساسي من حيث قدرتها على التمويه والمخادعة في تعاملها مع المشاكل المعقدة.

تأسيسا على ما سبق، يمكن أن نستنتج أن الوحدات المعنوية في المسار ب [جدول 2] تتجانس دلالياً تتجانسا يعرب عن طبيعة النظام المتناسك للفئة الغنية المتواطئة مع السلطة. ولئن كان هذا النظام لا يظهر سرديا في النشاط الصراعى للراوي، فإنه حاضر بقوة على الصعيد الخطابي عبر التجليات الصورية المثبتة في

المسار [ب]، وعبر مفعولاته على الصعيد التناظري الاقتصادي محدثا بذلك عالما مضطربا تتجانس فيه وحدات التشرد والجوع والموت.

وتعتبر الهوة الطبقيّة التي: "بلغت حدا لن تلقى فيه طبقة بأخرى إلا على أنقاض الأخرى"⁽¹⁾ المعادل الموضوعي للتناقضات الضدية التي تخترق المسارين أ وب [جدول2] وتمنحهما التجانس الدلالي:



إن التوازي بين المسارين أ وب يفسر، من جهة، رفض صالح وبشكل نهائي التعامل مع السبائبي في مشروع تهريب الأغنام، ومن جهة ثانية، وعيه بالاستغلال الذي مارسه عليه على نحو ما يظهر ذلك في البنية الصراعية الآتية التي تنصدرها رغبته في الحفاظ على القيمة المادية لثروته الحيوانية المهددة:

"... والأغنام مهددة"⁽²⁾

(1) الطاهر وطار، بوانر الوعي الطبقي في الرواية. مجلة الثقافة والثورة، ديوان المطبوعات الجامعية، عددا،

1976، ص. 56 عن واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب،

الجزائر، 1986، ص. 538.

(2) الرواية، ص. 101

"تقطع بها الحدود وتأتيني بالdrahm"(1)

وفي سبيل تحقيق الوصلة بينه وبين موضوع رغبته، يعرض على صالح برنامج تهريب يأتلف من الوحدات السردية الآتية:

- تأخذ الغنم.
- تهريبها.
- تقطع بها الحدود.
- تأتي بالdrahm.
- حصتك مضمونة(2)

يتبدى برنامج التهريب، في هذه اللحظة من السرد، في شكله المضمر مادام صالح لم يبرم العقد مع السبايبي ومادامت الشروط الموضوعية لم تتوفر بعد ليتأسس صالح فاعلا ديناميا يتمتع بإرادته الخالصة في رفض أو قبول الصفقة. بعبارة أخرى، إنه لم يمتلك بعد القيم التي تؤهله لأداء برنامج التهريب؛ ذلك أن قيمة الجهة بوصفها موضوعا لم تدخل في وصلة بجهة كفاءته. تأسيسا على هذا، نقدم صياغة الوضع السردى في هذه اللحظة على النحو الآتي:

فاعل الحالة U موضوع الجهة
صالح U الرغبة في الفعل

تتلخص النتيجة التي يريده السبايبي تحقيقها في الصياغة الرمزية التالية:

ت. س [تحويل سردي] ← [ف(صالح) U م. ج(الرغبة في الفعل)] ← [ف ∩ م. ج]

نلاحظ، من خلال هذه الصياغة، أن السبايبي يمارس، من الموقع الذي يحتله كمحرك manipulateur، على صالح بهدف إشعاره بأن تنفيذ برنامج تهريب الأغنام يمكنه من الخروج من وضعه المتردي.

(1) نفسه، ص. 101

(2) نفسه، ص. 102

يتجلى التحريك manipulation⁽¹⁾ في حكمه الإيجابي على قدرته:
"أعرف أنك قادر..."⁽²⁾.

وفي سبيل افتكاك قبوله، يعمل السبايبي على إقناعه بأن الحكومة متقاعسة ولا
تملك القدرة [على] ولا الرغبة في توفير مناصب شغل لرعيّتها:

"الحكومة. أخدم يا التعس للناعس. مازلنا نحلم بالأرض وبالسد، مجرد
حلم"⁽³⁾.

ولئن كان صالح يرفض السقوط في العملية التحريضية والانقياد لمشروعه،
ولا يستسيغ انتقاده للسلطة من موقع مصلحته، فإنه يدرك أن السبايبي لا يملك من
القدرة ما يؤهله لحمايته في حالة توقيفه:

"و إذا أُلقي علي القبض؟"⁽⁴⁾.

(1) تراجعنا في هذه الدراسة عن ترجمة الاستعمال بوصفه مقابلاً لـ: manipulation ذلك أننا أدركنا من خلال
معاينتنا للوضع المصطلحي في الدراسات اللسانية والسيمائية العربية الراهنة أن مصطلح الاستعمال يوضع في
الأعم الأغلب كمقابل لـ: usage. وتبيننا بعدنا مصطلح الإيماز للدكتور عبد الحميد بورايو. وقد تبين لنا أنه
يحيل فقط على جانب مفهومي واحد في المصطلح [الأمر] ولا يغطي مساراته الدلالية الفرعية. ولحل هذا
الإشكال، ملنا إلى استعمال مصطلح التحريك للدكتور بن كراد سعيد في كتابه الموسوم: "مدخل إلى السيميائيات
السردية، (دار تينعل للطباعة والشر، مراكش، المغرب، 1994). وهي الترجمة نفسها التي وضعها أستاذنا
الدكتور دانييل ريغ في قاموس السبيل (لاروس، باريس، 1983). وإذا دققنا النظر في هذه الترجمة نلاحظ أن
التحريك يحقق الفاعلية من جانب واحد (المحرك) ولا يشمل اللحظة التي قد يتم فيها التواصل المبني على
الخطاب البرهاني (الذي تسخر فيه وسائل الإقناع سواء تعلق الأمر بالمحرك أو فاعل الحالة). لهذه الاعتبارات
النظرية نتحفظ في استعمال التحريك ونقترح على السادة الأساتذة المتخصصين مصطلح التفعيل المشتق من
فعل الذي يغطي المسارات الدلالية لفعل الفعل Faire-faire. وقد عرضنا هذه الترجمة على الأساتذة بورايو
عبد الحميد، بوزيدة عبد القادر، وبيرنار بوتّي (مؤخراً في جلسة علمية جمعتي به بتاريخ 2000/1/4 في
باريس) الذين أبدوا اقتناعهم بهذه الترجمة.

(2) المرجع السابق، ص. 102

(3) نفسه، ص. 102

(4) الرواية، ص. 102

تأخذ بنية التحريك، بهذا الشكل، طابعا صراغيا⁽¹⁾ يفضي إلى رفض صالح برنامج التهريب على نحو ما تؤكد ذلك الملفوظات السردية الآتية:

"أنا صحيح، فقير وجائع لكن بكل تأكيد لن أتحول جروا في يدك"⁽²⁾.
"تافهون يتصورون كل الناس قابلين للبيع والشراء"⁽³⁾.
"لا يا السبابي..."⁽⁴⁾.

تستمد أداتا النفي /لن/ و/لا/ أهميتها من وعي صالح بأن الفئة الفقيرة استعملت عبر التاريخ، وأن التحريك بهذا المعنى يبلغ غايته القصوى في استغلال وتشويه الإنسان. إن هذه القناعة الراسخة في ذهن صالح محصلة لتقويم sanction مبني على فعله التأويلي faire interprétatif الممارس على تجاربه الخاصة. ويمكن أن نفهم هذا الفعل استنادا إلى الجدول 2 [المساران أ وب].

يبدو صالح منذ البداية متمردا على الوضع الاجتماعي، حاقدا على أولئك الذين نموا ثرواتهم بطريقة غير شرعية [ب"2 مسار ب] واستغلوه وضربوا حصارا عليه في سبيل منعه من الدفاع عن حقه في العمل.

فإذا كانت الرموز 2، أ"3، أ"3، 4 [مساراً] تتوافق مع مرحلة اليأس، فإن الرموز ب1، ب2، ب3 [مسار ب] كفيلة بإعطاء صورة حقيقية عن الأسباب الموضوعية التي أدت إلى تكريس الهوة الطبقية بين فئتين متميزتين في المجتمع: فئة تنعم باستقرارها وثباتها وامتيازاتها، وفئة تشقى بتقلاتها، وهجراتها إلى الحدود البعيدة، وحقوقها الضائعة. ويبدو التحالف في هذا العالم السديمي مستحيلا. لهذا السبب وابتداء من المقطوعة ن هـ [رسم1]، يدخل صالح في عالم الغموض

(1) Groupe d'Entrevernes, Analyse sémiotique des textes, P. U. L , Lyon, 1984, p. 55

(2) الرواية، ص. 102

(3) نفسه، ص. 102

(4) نفسه، ص. 102

واللاتواصل؛ ويأتي اختفاؤه في النقطة هـ تعبيراً عن اغترابه وفشله في التواصل مع الهيئات الرسمية وقطيعة مع عالم المهربين.

قد لا نبتعد عن الصواب إذا قلنا إن القارئ كان يتوقع هذا الوضع المسدود الذي آل إليه صالح منذ بداية الرواية وذلك من خلال المنظور النصي المؤطر للعلاقة الموجودة بين صالح وفعل التهريب. إن تنامي القصة في هذا الاتجاه ومن هذا المنظور ما هو إلا تثبيت لهذا التوقع.

والحقيقة أن العلاقة التي تربط صالح بمهنة التهريب عرفت تحولات كان لها عميق الأثر في تأطير الحدث السردي وتوجيهه على النحو الذي يرغبه صالح.

لنر الآن من خلال الملفوظات السردية الآتية كيف بدأت هذه العلاقة وتطورت بشكل تصاعدي من أول القصة إلى آخرها:

المقطوعة أ ب "المزيرية الكحلة والتربانو والموت"⁽¹⁾ "المهنة القنرة يا المسيردية، داخلها [أنظر الملحق 1] ← مفقود والخارج منها مولود"⁽²⁾ "تأكل حرفة الجوع"⁽³⁾

المقطوعة ب ج "....أني أهرب إلا لأعيش"⁽⁴⁾ "....وعمر الهارب لا يطول"⁽⁵⁾ ← ".... وحتى مهنة التهريب قذرة بشكل مقرف"⁽⁶⁾.

المقطوعة ج ح "تبني كبيرة للتوقف عن ممارسة هذه المهنة القنرة-حرفة كلاب-"⁽⁷⁾ "فهذه الصنعة ← فاسدة، لم تعلمنا إلا الذل وطحن كبريائنا أمام أحقر كلاب أولاد اليجو"⁽⁸⁾

(1) الرواية، ص. 17

(2) نفسه، ص. 19

(3) نفسه، ص. 24

(4) نفسه، ص. 28

(5) نفسه، ص. 28

(6) نفسه، ص. 28

(7) نفسه، ص. 42

(8) نفسه، ص. 42

المقطوعة د ← "إذا استطعت أن أترك هذه المهنة القذرة سأتركها حتماً. سأتزوج إذا وجدت شغلاً".⁽¹⁾

المقطوعة در ← "كرهت من رب هذه المهنة القذرة".⁽²⁾

المقطوعة ك م "أقسم صالح بن عامر الزوفري في أعماقه، أنه لن يعود إلى صناعة الهم
← التي لم تعلمه إلا المذلة والبكاء..."⁽³⁾

المقطوعة ن هـ "مهنة تعسة لم أطلبها أبداً"⁽⁴⁾ "غدا سأبحث عن عمل"⁽⁵⁾ "وإذا دخلنا الثورة
← الزراعية سنتخلص حتماً من هم صناعة الموت"⁽⁶⁾

المقطوعة هـ و "... كلام الناس يعينني مجبراً إلى مهنة التعاسة"⁽⁷⁾ "لم أكن أنوي العودة
← إلى هذا المرض القاتل".⁽⁸⁾

المقطوعة وي

← "هم الذين دفعوني إلى هذه النهاية الملعونة"⁽⁹⁾ "...عدت إلى حرفة قديمة لأكسب
قوتي اليومي"⁽¹⁰⁾ "... سنجد شغلاً ونبني من هذا الركام حياة رائعة. إذا لم
يكن البراج سأتحول إلى حطاب"⁽¹¹⁾ "ذكرته بأن اسمه مسجل لدى دار البلدية

(1) نفسه، ص. 52

(2) المرجع السابق، ص. 73

(3) نفسه، ص. 100

(4) نفسه، ص. 118

(5) نفسه، ص. 141

(6) نفسه، ص. 146

(7) نفسه، ص. 182

(8) نفسه، ص. 182

(9) نفسه، ص. 201

(10) نفسه، ص. 201

(11) نفسه، ص. 210

ويمكن الالتحاق بالعمل في أية لحظة⁽¹⁾. "سألتحق بشغلي"⁽²⁾ "اطمئني يا لونجا. عندما أعود. سنتزوج رسمياً ولنلتحق بالسد"⁽³⁾

إن الانتقال من المقطوعات السردية أب، ب ح، ج ح إلى المقطوعة ك م يعكس تحولاً أساسياً في بنية الجهات *structure des modalités* وتطور صالح من عالم سلبي إلى عالم إيجابي، من عالم مضطرب إلى عالم متوازن. فهو أخذ في التوغل في الحقيقة الاجتماعية والخروج التدريجي من لعبة نظام التهريب. ويبدو هذا النظام من منظور صالح مقترناً، تارة، بصور /البؤس/ و/الموت/ و/القذارة/، ومعادلاً، تارة أخرى، لصورة /الجوع/. إنه مشحون، في كل الحالات، بقيم ذات إحياء سلبي.

تأسيساً على هذه المعطيات، يتحول هذا النظام إلى موضوع رسالة *objet message* يقدم مهنة التهريب على أنها نفي للقيم الخالصة [هذه الصنعة فاسدة⁽¹⁾]. وهذا ما يفسر شعور صالح الاحتقاري تجاه هذه المهنة. ويمكن أن نلمس هذا الشعور في العلاقة الموجودة بين صالح وفعل التهريب.

تظهر المقطوعة أب علاقة التنافر القائمة بين صالح وفعل التهريب الذي يتركب من مؤلف دلالي تتجانس فيه قيم البؤس والقذارة والجوع المحدثه لعالم الموت [مسار أ، جدول2]. يصل صالح في هذه المقطوعة إلى حالة التناقض القصوى: فهو لا يعرف نفسه في هذه القيم ولا يرغب [لا يريد] في مهنة التهريب، وفي الوقت نفسه يجب أن يمارسها حتى يضمن وجوده. إنه يثبت وجوب الفعل لاعتقاده بأنه يقود إلى الحياة. والحقيقة أن وجوب الفعل لا يقود إلى الحياة بل يقود إلى حدود الموت [الميزيرية الكحلة والتربانو والموت⁽²⁾].

(1) نفسه، ص. 211

(2) نفسه، ص. 211

(3) نفسه، ص. 216

إن هذا الإشكال يدعونا إلى التساؤل فيما إذا كان وجوب الفعل⁽¹⁾ كاف لتحقيق التهريب. في الواقع، إن هذا العنصر، وإن كان وجوده ضروريا، فهو غير كاف لتحقيق هذا الأداء.

استنادا إلى المقطوعتين أب وب ج، والملفوظات السردية الآتية:
"أعرف أنك قادر..."⁽²⁾

"كه كه. هل وجدت شيئا. هذه يا صديقي أملاك المسيرية والجازية الله يرحمها"⁽³⁾

الدراهم التي أرباحها من بيع الكتان..."⁽⁴⁾

نلاحظ أن وجوب الفعل يقترن ضمنا بالقدرة على الفعل *pouvoir-faire* ومعرفة الفعل *savoir-faire* ويتضح ذلك في قدرة صالح على التمويه ومخادعة الجمارك ومعرفته الدقيقة لفضاءات أداءاته [الحدود]. وتخضع هذه الجهات، على الصعيد النظمي *syntagmatique*، للتوجيه الآتي:

{ وجوب الفعل } ← { القدرة على الفعل / معرفة الفعل } ← الأداء

يمكن صياغة هذه الجهات التي يخضع لها مشروع التهريب في الجدول الآتي:

الكفاءة		الأداء
الجهات المضمرة	الجهات المحينة	الجهات المحققة ⁽⁵⁾
وجوب الفعل	القدرة على / معرفة الفعل	فعل الكينونية ⁽⁶⁾

(1) يعتبر وجوب الفعل *devoir-faire* واحدا من العناصر الأربعة المشكلة للكفاءة.

(2) ارجع السابق، ص. 102

(3) نفسه، ص. 42

(4) نفسه، ص. 28

(5) *modalites virtualisantes, modalites actualisantes, modalites realisantes.*

(6) يتحقق فعل الكينونة *faire-etre* في وصلة الفاعل بالموضوع.

إن كراهية صالح لهذه المهنة تزداد حدة في المقطوعة ج ح، وتتعرز رغبتة في التوقف عن ممارستها ["تيتي كبيرة..."] باقتران إرادته التدريجي بالالفعل **vouloir- ne pas faire**.

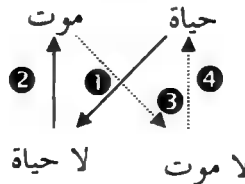
ومع المقطوعة السردية ج د، ينشأ موضوع جهة جديد يشكل دخوله في وصلة به عاملاً أساسياً في بناء قدرته على التخلي عن مهنة التهريب **pouvoir- ne pas faire**. ويفضي هذا الوضع السردى إلى تنامي كفاءته في اتجاه التحري عن منصب شغل.

في المقطوعة د ر، تقوى درجة توتر صالح وتتسع الهوة بينه وبين فعل التهريب اتساعاً يعكس عدم توافقه مع جماعة المهربين، ويأسه من مهنة تقود إلى الموت.

إن التنامي التصاعدي الذي يبلغ ذروته في المقطوعة ك م باتخاذ صالح قراره الحاسم، هو في الواقع محصلة لاقتناعه بضرورة إحداث القطيعة مع نظام يفرز قيماً تعمل على إذلاله. تجسد هذه اللحظة السردية اكتمال كفاءته واستعداده لتحقيق أداء رفض مهنة التهريب.

ولئن كان هذا الأداء يعني بكل بساطة قطع مصدر عيشه، فإنه في مستوى سردي آخر [المقطوعة ن هـ]، سيولد لديه رغبة جديدة تؤسسه فاعلاً منفذاً **sujet opérateur** في برنامج التحري عن منصب عمل. تتقدم الثورة الزراعية في هذه التجربة بوصفها فاعلاً مساعداً **adjuvant** ينقله من اللاحياة إلى الحياة.

إذا نظرنا ملياً في البنية العميقة للمقطوعات السردية المضبوطة سلفاً، يمكن أن نصوغ دورتها الدلالية في المربع السيميائي **carré sémiotique** الآتي:



تتقدم اللاحياة في المربع كنفي لقيمة /الحياة/، وتعكس في الوقت نفسه تشرد صالح وضياعه في عالم المهربين الذي يقود إلى حدود الموت:

حياة موت

②↑ ↙①

لاحياة

ويبدو خروجه من هذه المنطقة الخطيرة مرهونا بإعادة النظر في مهنته المشحنة بقيم لا يعرف نفسه فيها. وبالتالي، فإنه أمام امتحان صعب ومهمة أساسية تختلف عن تلك المهمات التي تواجه البطل في الحكايات الشعبية. فعوض أن يتصارع مع قوة مستقلة عن كيانه فإنه يتصارع مع نفسه؛ قوة تقوي رغبته في التهريب وتسود نظرتة إلى السلطة، وقوة تعزز قناعته بأن هذه المهنة ليست في نهاية الأمر سوى المعادل الموضوعي للموت. تظهر تجليات الاضطراب بين القوتين، بشكل واضح، على صعيد الجهات *plan des modalités* في ترده [المقطوعتان ج ح، ح د] الذي يحتل منزلة وسطي بين الحياة والموت [لا موت].

إن تنامي القصة في هذا الاتجاه وبشكل تصاعدي يفضي في المقطوعة ك م إلى وضعية يقسم فيها صالح ألا يعود إلى صناعة الهم. يستعمل /القسم/ على المستوى المعجمي للدلالة على مسارين دلاليين:

-يحيل المسار الأول [اليمين بالله] على مرجعية دينية تلمس من خلال العقد *contrat* الذي يلزم فيه صالح نفسه أمام الذات الإلهية بتشريف العهد الذي قطعه على نفسه.

-يحيل المسار الثاني(*) على إمكانية دلالية تعكس في النص تنامي مسار الجهات لصالح وارتقائه من الشك والتردد [المقطوعتان ب ج، ج ح] إلى اليقين [المقطوعة ك م].

(*) القسم هو أن يقع في قلب الإنسان شيء فيظنه ثم يقوى ذلك الظن فيصير يقينا.

ولئن تمت هذه النقلة بنفي الموت أولا وتثبيت منطقة الحياة ثانيا [موت ← لا موت ← حياة]، فإن ولوج هذه المنطقة يظل مشروطا بتحري صالح عن منصب شغل ودخول الثورة الزراعية حيز التطبيق [المقطوعة ن هـ].

غير أن الأحداث في هذه الوضعية تنزع في النهاية [المقطوعة ن هـ] منزعا مأسويا نتيجة لـ/كلام الناس/ الذي أفتّر رغبته، وبدد أحلامه، وأعادته إلى المنزلة الوسطى المتمسة بالاضطراب بين اللاحياة والموت:

حياة موت
① ↙ ↗ ②
لا حياة

كيف يمكن أن نضبط التجليات السردية لهذا الوضع الممثل في البنية العميقة؟ وكيف يتحول كلام الناس إلى سلطة مقوضة ومدمرة لقدرة صالح ورغبته [على] في التخلي النهائي عن التهريب؟ من حقنا أن ننسأل عن الجهات التي أسهمت في صنع هذا القرار ولأية غايات؟

حتى نصوغ إجابات على هذه التساؤلات، سنقوم بمعاينة المقامات السردية التي تتصدر إعلان صالح عن رغبته في الانتقال إلى منطقة الحياة.

تأسيسا على المعطيات النصية، تترجم هذه الرغبة على الصعيد السردى [في المقطوعة ن هـ] بانتقاله إلى فضاء البلدية وعزمه على الدخول في وصلة بموضوع تحريره:

"سأنزل إلى البلدية (...) سأخذ حقي" (1)

وبمجرد وصوله إلى الفضاء الرسمي، تبدأ المواجهة بينه وبين الميلود، و تولد نظرته إلى الجدار برنامجا جديدا يتحدد فيه موقع كل فاعل وعلاقته بماضيه:

(1) الرواية، ص. 148/118

"-عمي صالح، تحتاج إلى شيء؟؟؟ لم ينتبه له. كانت عيناه عالقتين بجدران
الحجرة وبسقفها"

"-بابا صالح. مالك ساهي في الحيط"(1)

يؤدي صالح في هذا الملفوظ دور الفاعل الملاحظ *sujet observateur*(2).
تقتصر ملاحظته على نظرة لم تكن عادية أو عابرة، بل تأخذ حيزاً من الزمن كبير
أُتعب صالح وأثار انتباه المسؤول:

"لكن عينيه (...) أُنعبتاه"(3)

من هنا، تحمل ملاحظته بـ/النظرة/ سلطة تبليغية *pouvoir
communicatif*، ويفهم المسؤول رسالة النظرة *le message du
regard*، فيترجمها كلاماً من موقع الفاعل النائب *sujet délégué*. إنه ينوب
عنه في ترجمة النظرة وقراءة الصورة:

"هذه صورة نابليون، منقوشة على الجدار من زمن فرنسا. لا البلدية نزعته
ولا نحن انتبهنا لها. إيه زمن رايح وزمن جاي، وكلها دنيا واحدة"(4).

تكتسي صورة نابليون المعلقة أهمية خاصة لحمولتها التاريخية المدركة على
حدي الثنائية الضدية الآتية:

/فوق/ عكس /تحت/

[نابليون] [المسؤول]

(1) نفسه، 148/118

(2) Joseph Courtès , *Analyse sémiotique du discours*, Hachette , Paris ,1991
p. 58

(3) الرواية، ص. 149

(4) المرجع السابق، ص. 148/118

تأسيسا على اعتبارات تاريخية محضة، تعني /فوق/ السيادة الفرنسية على الجزائر. وتدل /تحت/ على رضا المسؤولين بهذا الوضع، وتعاطفهم مع فرنسا، ورغبتهم في إعادة إنتاج تجربتها. وهذا ما يحمل الميلود على اختصار الزمنين [قبل وبعد 1962] في زمن واحد و/دنيا واحدة/، وعلى الاعتراف بأنه لا يوجد اختلاف أو تمايز بين /زمن رايح/ و/زمن جاي/:

"لو عرفت قساوة الزمن الأول، كنت غيرت رأيك حتما في الصورة"⁽¹⁾.

ينتقل صالح في هذا الملفوظ من الملاحظة بـ النظر إلى الملاحظة بـ الكلمة. سيوضح رأيه حول تعليق الصورة بالكلمة استنادا إلى المعرفة التاريخية التي يملكها والتجربة المرة التي عاشها في /الزمن الأول/. فهو يقابل تجربته بتجربة المسؤول مقابلة تولد الثنائية الضدية الآتية:

الزمن الأول { قساوة / حنان }

إن صالحا لا يرفض الصورة في كيانها المحايث immanent، بل يرفضها لكونها رمزا يحيل إحالة شفافة على الحضور الفرنسي في الجزائر. وليس الرفض في حقيقة الأمر سوى تقويم سلبي لفعل /قاس/ نابع من صلب الجهاز الاستعماري. بخلاف صالح، لم يغير المسؤول رأيه في الصورة معترفا في ذلك بتعاطفه مع الجهاز الاستعماري. يعتبر تعليق الصورة تقويما إيجابيا لزمن يتميز بـ /حنان/ المستعمر عليه ويرقى، في مقابل ذلك، هذا التقويم بفعل التعليق إلى الجراء الإيجابي:

& { "يا سيدي ماذا تغير. بيار راح وموح جاء" }⁽²⁾.

\$ { "...لم يصدق نفسه أبدا. يحدث هذا معه لأول مرة" }⁽³⁾.

(1) نفسه، ص. 149

(2) نفسه، ص. 149

(3) نفسه، ص. 149

يبدو المسؤول في الملفوظ [8] مقتنعا اقتناعا كلياً بأن الوضع بقي على حاله وأن القطيعة مع جهاز الممارسات الاستعمارية المجتمعة في صورة /القساوة/ لم تحدث. ولئن تغيرت الأسماء في الظاهر، فإن المسمى في الباطن واحد؛ "بيار راح وموح جاء". وجهان مختلفان لعملة واحدة وجهاز واحد وزمن واحد ودنيا واحدة.

في الملفوظ [8]، يفقد صالح توازنه. فهو أمام حالة خاصة. /لم يصدق نفسه/ لأنه لم يتصور أبداً أن المستحيل سيصير /ممكناً/. ويتجاوز هذا التحول توقعاته المبنية على قدرته النضالية في الزمن الأول. لقد وقع انحراف عن نظام القيم الذي ضحى من أجله وتوقع تجلياته في الزمن الثاني:

"خرَجناكم من الباب دخلتم من الطاقة"⁽¹⁾.

ينهض هذا الملفوظ على المختلف الدلالي الزمني المولد للثنائية الآتية:

[تخريج] : خروج ← دخول

الزمن الأول عكس الزمن الثاني

↓

↓

بعد

عكس

قبل

بناء على هذا التوزيع، يفترض /التخريج/ في الزمن الأول "قوة" تمارس فعلها في الفئة التي ينتمي إليها المسؤول. وتندرج هذه الممارسة ضمن البرنامج التحريري المضاد للبرنامج الاستعماري. تعتبر خطورة صالح في البرنامج الأول معطى ثابتاً في النص:

"قالوا أن ماضيكم يكتنفه الغموض. وقد وصلتني نسخة مصورة من ملفك القديم".

"- (...) ومكتوب عليها..."

(1) الرواية، ص. 149

-" élément dangereux عنصر خطير" (1).

وتتجلى الممارسة الخطيرة للتخريج في الرسم العاملي على النحو الآتي:

{فقر/ اضطهاد} تحرير البلاد ← الفئة الضحية {صالح وسكان القرية/ الشعب}

↑ ↓

الشعب ← الفئة الضحية [صالح] → المستعمر / الفئة المتواطئة

تبدو، في هذا الرسم، التناقضات الاجتماعية المتسمة بالقساوة عنصرا أساسيا في تشكيل افتقار manque الفاعل الجماعي [الفئة المجاهدة] وفي تهيئة ظروف تمرده على الوضع الاستعماري. غير أن الرغبة في تحرير البلاد وتحسين الوضع تصطدم بالفاعل الجماعي المتركب أساسا من فئتين متميزتين ومتجانستين: الفئة المستعمرة والفئة العميلة. سيعمل هذا الفاعل على كل ما من شأنه أن يسد الطريق أمام المجاهدين ويفشل مسعاهم. ويقود الصراع، في النهاية، إلى تحقيق الفئة المجاهدة لموضوع رغبتها.

إن منطق النصر logique de la victoire، في الرسم العاملي، يدل على أن الفئة المجاهدة ستستفيد حتما من تضحياتها المثبتة في الملفوظات الآتية:

(...) "لدامنا التي شربتها الوديان والليل وجليد الفصول الشتوية" (2)

(...) "التربة التي سحقتنا" (3).

(...) "قاتلت الجيوش الجرارة من أجل حمايتنا" (4).

(1) نفسه، ص. 150

(2) الرواية، ص. 149

(3) نفسه، ص. 149

(4) نفسه، ص. 149

إن الفئة الخائنة التي عارضت طموحات الفئة المجاهدة في الزمن الصعب تسعى، للمرة الثانية وفي الزمن الثاني وبفعل تواطؤها مع السلطة الحاكمة، إلى إهانتها والاستيلاء على حقوقها التي ناضلت من أجلها. فتجد نفسها وجها لوجه أمام الفقر والجوع والبطالة.

ويؤدي هذا التحويل السردي إلى قلب مضامين Inversion des contenus⁽¹⁾ النص على النحو الآتي:

<u>قبل</u>	<u>مضمون معكوس</u>	<u>جهاد</u>	<u>خيانة</u>
بعد	مضمون مفترض	حرمان	استفادة

تتجسد هذه الوضعية المقلوبة Situation inversée في الملفوظات الآتية:

قبل {في الزمن الصعب الذي مضى، كانت تبيع الله والأرض، وتنام ذليلة عند أقدام (الكولون)}.

بعد {وهاهي الآن (...)} تستغل الطرف القاسي لتجيره لمصالحها⁽²⁾.

قبل {البارح تذبحني وتذبح والديك

بعد {واليوم تقيم مقدار قدرتي على التضحية⁽³⁾.

تقودنا المعاينة، عن كثب، للتحويل الأساسي في المضامين، إلى إجراء تعديل جوهري في الوضع الذي تحتله الفئة المشكلة للمرسل إليه في الرسم العاملي السابق!

(1) - A. J. Greimas , Du sens , Paris , 1970 , p. 187 .

- J. M. Adam , Le récit , P. U. F , Paris , 1991 , p. 7

(2) نفسه، ص. 149

(3) نفسه، ص. 149

{فقر/ اضطهاد} تحرير البلاد ← [بعد: الزمن الثاني]{الفئة الخائنة/السبايبي والمسؤول}

↑ ↓

الشعب ← الفئة المجاهدة → [قبل: الزمن الثاني] المستعمر/الفئة الخائنة

فئة تجاهد وتحرم وفئة تخون وتتعم؛ إنها المعادلة الصعبة التي اخترقت منطق النصر في البرنامج التحريري الذي يعتبر صالح رمزا من رموز فاعليه.

تأسيسا على هذا الرسم، تنتقل الفئة الخائنة (السبايبي، المسؤول) من وضعية عاملية Position actantielle [مسحبة على الزمن الصعب]، تعارض فيها البرنامج التحريري/ يبيع الله والأرض/ و/الذبح/، إلى وضعية ثانية محققة في الزمن وينتج عنها إعلان أساسيان:

- يتمثل الفعل الأول في استغلال الظرف القاسي لتنمية ثرواتها والدفاع عن مصالحها المكتسبة في الزمن الأول.

- ويتمهى الفعل الثاني، الممهد للفعل الأول والمنتج له، مع توريث المسؤول بالرشوة وزجاجات "الويسكي" و "الباستيس":

"توفير "الويسكي" و "الباستيس" للمسؤولين".

"وسهرة صيفية في أحد "كبانوهات" المتوسط، كفيلة بجعله مستفيدا من حكايات إعادة الاعتبار للمجاهدين القدماء".

"فالحصول على وثيقة المجاهد في هذه البلدة لا تكلفه أكثر من سهرة وبعض زجاجات الويسكي"⁽¹⁾

نلاحظ، في هذه الملفوظات، أن التواصل الذي يتم بين الفاعلين: الفئة المسؤولة (ف1) والفئة الخائنة (ف2) يشيد، في إطار البرنامج السردي المضاعف، على بنية التبادل Structure de l'échange⁽²⁾

(1) الرواية، ص. 148

(2) A. J. Greimas , Du sens , P. 42

«أعط تأخذ»⁽¹⁾.

تدخل الفئتان ف1 وف2 في علاقة بموضوعين:

م1 : وثيقة المجاهد.

م2 : سهرة صيفية، زجاجات الويسكي والباستيس.

تعبّر الحالة الأولى عن:

أ - وصلة ف1 ب م1 وفصلته عن م2 : $م1 \cap ف1 \cup م2$

ب - وصلة ف2 ب م2 وفصلته عن م1 : $م2 \cap ف2 \cup م1$

إن كل فئة، في هذه الحالة المضمرة، تحدد لنفسها، على محور الرغبة، موضوع القيمة التي تريد امتلاكه انطلاقاً من قدرتها، وبالمقابل، على أداء البرنامج السردى الذي يخوله لها دورها الموضوعاتي:

ف1 يملك النفوذ الإداري وف2 يملك النفوذ المادي. ومن ثم، تخضع عملية التبادل لأداء مزدوج تحول فيه الحالات على النحو الآتي:

الحالة الثانية $\{ م1 \cup ف1 \cap م2 / م2 \cup ف2 \cap م1$

من هذه المنطقات، نلاحظ أن العلاقة تتغير في صلب البنية التركيبية بحيث يمكن لكل فاعل أن يمتلك القيم التي يرغب فيها سواء تعلق الأمر بالنسبة للفئة ذات النفوذ السياسي والتي لا تتجاوز دائرة اهتماماتها اللهو والعبث (سهرة صيفية، زجاجات الويسكي والباستيس)، أو الفئة الخائنة التي تسخر هذا النفوذ لقضاء مآربها (وثيقة المجاهد).

سيسهم هذا الوضع المبني على الرشوة في نقل سلطة القرار Pouvoir de décision من الفئة المجاهدة إلى الفئة الخائنة التي ستسعى من موقع قوتها إلى عزل الفئة التي عارضت طموحاتها في الزمن الأول ومقاومتها والانتقام منها

(1) الرواية، ص. 148

وتهميشها. حتى وإن تغيرت المواقع الاستراتيجية والوضعيات العاملة، فإن هذا الوضع الجديد سيعيد إنتاج صراع الزمن الأول:

"دنيا والله. أنت تقيم الناس؟؟؟ آه يا الميلود. (أش) من زمن هذا يا ولد السي لخضر. البارح تذبحنى

أ ← وتذبج والدك واليوم تقيم مقدار قدرتي على التضحية من أجل هذه التربة التي سحقتنا "

(...) - " سمحوا لك بالتسجيل في قائمة عمال السد، لكن الثورة الزراعية قالوا ..."

... قالوا أن ماضيك يكتفغه الغموض. وقد وصلتني نسخة مصورة من ملفك القديم."

ب ← - "من وقت فرنسا "

- "آي نعم. ومكتوب عليها ... "

- "Elément dangereux. عنصر خطير."

... والله يا بابا صالح هم اللي نزعوك من القائمة"(1).

يبدأ صالح، في الملفوظ أن بتنظيم قوله في مقولة المتكلم، ويتوجه بخطابه إلى /الأنث / المشحن بقيمة احتقارية. ثم يسمي الأنث، يحدد نسبه، يوطر فعله في السياق التاريخي، ينتقد الوضع الذي أفرزه الزمن الثاني، ويبيدي إندهاشه للمنصب الحساس الذي أسند إلى الميلود من خلال تقويمه لنشاطه وأدائه الفعال والإيجابي (ذبح) في البرنامج الاستعماري المناهض للبرنامج التحرري.

ويعبر هذا الاندهاش عن وضع في غاية التناقض: كيف يقوم الميلود بمقدار قدرة صالح على التضحية وهو لا يملك ما يؤهله للتقويم! بعبارة أخرى، كيف يقوم

(1) الرواية، ص. 149

الميلود، المعروف بخيانتة للثورة، المسار الثوري لصالح الذي أبدى وفاءه لهذه الثورة!!!

كنا قد أوضحنا ممارسة صالح الخطيرة في البرنامج التحرري الذي يثبت امتلاكه للكفاءة التي أهلتة على القيام بالعمليات العسكرية؛ أي كان يملك الفعل الذي يهدد أمن ووجود المستعمر. فضلا عن هذا، فإن الميلود، من موقع انتمائه إلى البرنامج الاستعماري، يقوم تقويميا إيجابيا الحالات المحولة في الأداء الأساسي لصالح:

وأعرف أنك كنت مجاهدا فاضلاً⁽¹⁾

ويتطابق هذا الأداء مع العقد الذي أبرمه صالح مع الفئة المجاهدة والمتمثل في تحرير البلاد.

إن هذا الاعتراف الذي افتكه صالح من المسؤول قيد هذا الأخير تقييدا لم يملك فيه القدرة على تبرير قرار فصل صالح من قائمة عمال السد والمرتببط بدرجة إسهام المرشح في البرنامج التحرري.. فهو، في كل الحالات، متذبذب في موقفه من القرار [ب]: تارة يتهم النظام السياسي فيحمل الثورة الزراعية مسؤولية إقصائه، وطورا ضمير الغيبة / هم /.

ولئن كان الفاعل المعارض لموضوع رغبة صالح (منصب شغل)، لا يحيل على صورة اسمية محددة، فإن تجلياته ثابتة في النص من خلال ممارساته:

"يستجدون بالملفات التي خلفها ديغول وبيجار والقتلة"⁽²⁾

تكرس الوصلة المحققة في / الاستجداد / بين الضمير / هم / و / رموز الاستعمار / الفرنسي / [ديغول، بيجار والقتلة] استمرارية الصراع du conflit continuité ومواصلة المشروع الاستعماري من خلال الملفات التي تضبط

(1) الرواية، ص. 149

(2) نفسه، ص. 150، 151، 153

النشاط العسكري [الخطير] للفتنة المجاهدة. يندمج، على هذا الأساس، الضمير [هم] بسهولة في صورة الفتنة الخائنة التي ساندت رموز الاستعمار في الزمن الأول، و، تسعى، في الزمن الثاني بفعل توريط السلطة بالرشوة واستيلائها على سلطة القرار، إلى الانتقام من الفتنة التي حاربت هذه الرموز، وضرب النظام السياسي من الداخل وقمع طموحات الشعب. لقد اتسع مجال تحركها واشتدت سيطرتها على الوضع إلى درجة أصبحت تملك فيها القدرة على استعمار البلد من جديد:

"تحب بلادنا لكنها ليست لنا"⁽¹⁾

تؤدي هذه الوضعية المضطربة التي وصل إليها السرد إلى اغتراب صالح واختلال رؤيته إلى العالم.

ويترجم هذا التوتر على الصعيد الخطابي بالمسار الصوري المجسد لاهتزاز كيانه الناتج أصلاً عن اكتشافه للحقيقة التاريخية المرة وفقدانه الثقة في النظام السياسي الذي علق عليه آمال تحريره. ويمكن أن نوظر هذا المسار في الحقل المعجمي الآتي:

أ} "شعر بتوازنه يختل"⁽²⁾.

ب} "جحظت عيناه، مسحها من دمعيتين..."⁽³⁾ "تمتم بحزن"⁽⁴⁾. "ارتجف ساعده"⁽⁵⁾

ج} "لطم رأسه على الحائط بقوة"⁽⁶⁾

د} "كانت الرجفة التي اكتسحت كل جسده وأعضائه"⁽⁷⁾

(1) الرواية، ص. 150، 151، 153

(2) نفسه، ص. 150

(3) نفسه، ص. 150

(4) نفسه، ص. 150

(5) نفسه، ص. 151

(6) نفسه، ص. 150

(7) نفسه، ص. 151

س} "قلبه يدق دقات غير منتظمة"(1)

ك} "تقياً في الفاعة"(2)

يقدم هذا الحقل جرداً عاماً لمجموعة من الصور تشكل مساراً يؤدي في كليته إلى تيم واحد يعبر عن حزن صالح وقلقه ويأسه في الحصول على حقه. يبدأ هذا المسار بوضع مضطرب [أ] يترجم حالة الافتقار التي تولدت بعد اكتشافه حقيقة الوضع في الزمن الثاني وتبليغه خبر فصله من قائمة عمال السد. ويبدأ الاختلال يقوى ويتصاعد لتظهر أعراضه في العين [بحوظ /، /دمع /] ثم في الصوت [بتم بحزن /] ثم في الأعضاء [/ ارتجف ساعده /] [ب]؛ توتر ينجم عنه سلوك تدميري، انتحاري يقود إلى منطقة الموت [ج]. ويتواصل التصاعد بـ [الرجفة / و/ دقات القلب غير المنتظمة / [س] ليؤدي في النهاية إلى لفظ هذا العالم [ك] والهروب منه.

"وهو يجري ويتلوى كطفل لذعته أفعى"(3).

يعكس هروبه رغبته في الانتقال إلى "الهناك" [عالم البراءة]، في سبيل خلق توازن جديد:

"تحو بيته والإسطبل ولزرق وعيون لونجا"(4).

إن هذه النتائج التي توصلنا إليها من خلال معاينة الإطار السردي الذي تولد مباشرة بعد إعلان صالح عن رغبته في الانتقال إلى منطقة الحياة [المقطوعة هـ وبداية المقطوعة وي] كفيلة بإعطاء تفسيرات، من جهة، حول خطورة كلام

(1) نفسه، ص. 153

(2) نفسه، ص. 153

(3) نفسه، ص. 154

(4) الرواية، ص. 154

النَّاس⁽¹⁾ وقدرته على تدمير كفاءة صالح وتحويلها عن مجرى التحري المشروع، ومن جهة ثانية، حول الجهات المحددة في سياق الصراع والتي أسهمت في صنع الوضع السردي الذي آل إليه صالح في بداية المقطوعة وي.

وتظهر انعكاسات كلام النَّاس بشكل واضح في المقطوعتين الآتيتين:

المقطوعة هـ و } أ} "...كلام النَّاس يعيدني مجبرا إلى مهنة التعاسة"⁽²⁾.
 ب} "لم أكن أنوي العودة إلى هذا المرض القاتل"⁽³⁾.
 المقطوعة وي } ج} "هم الذين دفعوني إلى هذه النهاية الملعونة"⁽⁴⁾.

يحتل كلام النَّاس في [أ] وضعيّة عامليّة خصوصيّة تفرز نشاطا يمارس على صعيدين:

- إن كلام النَّاس بوصفه فاعلا معارضا يحول بين صالح ورغبته في العمل.
- فهو بمثابة القوة المحدثة لوجوب الفعل: يجب أن يمارس مهنة التهريب مادامت رغبته الأصلية في الحصول على العمل لم تتحقق.

ويمكن أن نلمس في مستوى آخر افتقاده المطلق إلى الحرية في الاختيار وفي تقرير مصيره على النحو الذي يرغبه؛ يتأكد ذلك بالثقل الدلالي charge sémantique المشحن في صور /التعاسة/[أ]، /القاتل/[ب]، /الملعونة/[ج] الذي يلغي الفعل الإرادي ويخلعه عن الممارسة الاختيارية [أ،ج]. نسجل في المقطوعة وي تحولا يعكسه التنقل من "نشاط الناس الكلامي" [أ] إلى "الناس" بوصفهم فئة خائنة

(1) ثبتنا في سياق التحليل أن معنى /الناس/ في النص يخرج من عموميته ليحيل على فئة خائنة بعد الميلاد رمزا من رموزها.

(2) لرواية، ص. 182

(3) الرواية، ص. 182

(4) الرواية، ص. 201

يعبر عنها ضمير الغيبة هم المدرك في الخطاب "كانتماء". إن استفظاعه لهول ما لحق به قاده إلى تعييبها من مجاله اللغوي بهدف إقصائها من حياته. ومما يعمق هذا البعد الخفي لضمير الغيبة ورود الفعل في صيغة الماضي [ج: "دفعوني"]، فالماضوية فيه تومئ من طرف خفي إلى أن هذه الفئة لم تعد تمثل بالنسبة له إلا جزءاً من الماضي الذي فات وترك جروحاً لا تضمد وبصمات لا تمحى. لقد وصل توتره إلى درجة لا يستطيع فيها البقاء في البلدة. إن إحساسه بالمهانة والخيانة قاده في هذه المقطوعة إلى الاختفاء والضياح. ومع نهاية المقطوعة وي، وفي أثناء عودته من عالم الغربة واتصاله بلونجا، تبدأ كفاءته في مشروع التحري عن العمل تتشكل من جديد وبشكل تدريجي، بعدما عرفت تراجعاً وانحساراً، مرفوقة، وعلى نحو متواز، بمشروع زواجه من لونجا. فيتغير مجرى الخطاب بحضورها القوي والمتنامي في خلق توازن جديد. إن هذا اللقاء، على بساطته، يحفل بإحياءات عميقة من أبرزها أن العلاقة التي يحلم بها صالح ويتمنى أن ترد بين الطرفين هي علاقة الاحتواء والاحتضان أي علاقة التعايش والانسجام. إذا كان صالح قد خرج منهزماً مادياً، فإنه، في الواقع، حقق انتصاراً معنوياً يتسم بمشروعية أطروحته وثبات رؤيته إلى العالم. ويعد انهزامه الآن انتصاراً مؤجلاً للخير.

تعد مشروعية أطروحة صالح قاعدة أساسية شيد عليها عالم رواية نوار اللوز الذي يتميز بحضور صالح القوي والمكثف في النص وقدرته على اختراق فضاءات دلالية متعددة؛ إنه حاضر في

كل النقاط الاستراتيجية. يحاور الجمارك، يدخل في صراع معهم ومع الميلود، وفي سلم مع موح الكتاتبي وآخرين، وفي حب مع المسيردية ولونجا، ويسلم نفسه، في الأخير، للدركيين.

هذه الشخصيات التي التقى به أو نقلها عبر ذاكرته ما كان لها أن توجد لولا غنى بطاقته الدلالية وتنوع برامجه السردية. إن مسألة التأثير الدلالي لهذه الشخصيات التي تستمد وجودها من حضوره، ستقودنا إلى البحث عن الطرق

الكفيلة بتحديد ما منهجيا، وتصنيفها، والتعرف على أدوارها الموضوعاتية thématique، والوقوف عند الرغبات التي تقف وراء تحركاتها وتناميها على امتداد المساحة النصية، والكشف عن العلاقات الداخلية القائمة بينها. وسيكون هذا الفحص موضوع الفصل اللاحق.

4. شخصيات الرواية / تصنيفها وتأطير مكوناتها الشكلية والدلالية

4-0 مقدمة منهجية

من بين المشاكل التي اعترضت سبيل الباحثين في محاولتهم الحثيثة لتحديد مفهوم الشخصية في النص السردي تلك المتعلقة بمكوناتها ومستويات تحليلها:

- النحوي أولا، فالشخصيات تنتشر على امتداد النص لتحتل موقعها من خلال الأفعال التي تسند لها.

- السردى ثانيا، لأن الشخصية بوصفها وحدة سردية تسهم في القصة المروية. *histoire narrée*.

- الأدبي أخيرا، يعتمد هذا المستوى اعتمادا كليا على ما يقيمه النص من علاقة بالعالم الخارجي وذلك انطلاقا من الاعتقاد السائد بالعلاقة الوثيقة الموجودة بين النص والشخصيات الحقيقية.

تبين هذه الوقفة السريعة عند حدود الإشكالية التي يطرحها تحديد الشخصية أن مسألة حصر مفهومها في حد ذاته تبقى غامضة. وهذا ما أشار إليه فيليب آمون في دراسته للنظام السيميولوجي للشخصية عندما أكد أن رواج التحليل السيكولوجي أسهم في تعقيد المسألة وإثارة اللبس في التمييز بين الشخص *personne* والشخصية *personnage*⁽¹⁾.

(1) Philippe Hamon, Pour un statut sémiologique du personnage, in Poétique du récit, Seuil, coll. Points, Paris, 1977, p. 122 .

من هذه المنطلقات، ورغبة منا في استجلاء هذه المسألة والاستفادة من الإجابات المصوغة في هذا الشأن، سنتبنى في تحليلنا لشخصيات رواية نوار اللوز القاعدة النظرية المنصوية تحت مفهوم الممثلين المجسدين في تلاقي نوعين من الأدوار العاملة والموضوعاتية والمكلفين: "(...) بمهمة مزدوجة؛ إنهم، من جهة، يدعمون البنية السردية في اصطلاحهم بالوظائف الأساسية وفقا للمقطوعات وتبعاً لمجال الحكاية، ويحملون من جهة أخرى العناصر الدلالية"⁽¹⁾. ومن ثم، فإن "المضمون الدلالي الأدنى للدور يعتبر (...) ماثلاً لمضمون الممثل. نستنتج من ذلك سيم التفرد الذي يفتقد إليه. ولئن كان الدور كيانا صوريا حساسا، فإنه مجهول واجتماعي؛ وفي مقابل ذلك، يؤدي الممثل (...) دورا أو أدوارا عديدة"⁽²⁾.

وعلى هذا الأساس، تتميّز الشخصية، بوصفها ممثلاً، بالسمات الآتية:

- كيان صوري *entité figurative*.
- حساس *animé*.
- التفرد *individuation*. نلاحظ هذه السمة في اسم العلم الذي يحمله الممثل⁽³⁾.

استناداً إلى هذه التوضيحات، سنقدم تصنيفاً لشخصيات الرواية. يعقبه تحليل مستوياتها، والنظر في تجلياتها الدلالية. سيمكننا المرور الاضطراري بالدليل اللساني على إقرار مفهوم المرجع بوصفه مقياساً أولاً للتصنيف.

1-4 الشخصية المرجعية:

إن المرجعية هي "الوظيفة التي يحيل بها الدليل اللساني على موضوع العالم غير اللساني، سواء كان واقعياً أم خيالياً"⁽⁴⁾.

(1) J. Courtés, Introduction à la sémiotique narrative et discursive, p. 95

(2) A. J. Greimas , Du sens , p. 256 .

(3) A. J. Greimas , op,pp. 255-256 .

(4) Dictionnaire de la linguistique , Larousse , Paris , 1973 , p. 414 .

على هذا الأساس، تحليل الشخصية المرجعية *personnage référentiel* على الواقع غير النصي *extra - textuel* الذي يفرزه السياق الاجتماعي [صورة المهرج في المجتمع الجزائري] أو التاريخي [نابليون، أولاد لاليجو]. ويرتبط وضوح هذه الشخصية المتميزة بالمعنى المليء والمثبت ثقافيا بدرجة إسهام القارئ في الثقافة الاجتماعية والتاريخية التي ينتسب إليها النص الروائي. تتفرع الشخصية المرجعية في نص الرواية إلى فئتين متميزتين؛ فئة مستوحاة من التاريخ الجزائري بشكل مباشر نطلق عليها مصطلح *الشخصية التاريخية historique personnage*، وفئة تحليل على شخصيات أدبية أجنبية عن النص الروائي تنضوي تحت مصطلح *الشخصية التناسية personnage intertextuel* التي تؤدي وظيفة تناسية تتجسد في مختلف مستويات بنية النص.

يمكن أن نحصر الفئة الأولى في نابليون وأولاد لاليجو. يحقق حضور الشخصية التاريخية الأولى، المتجلية على الصعيد الإيقوني [صورة نابليون المعلقة]، في النص التجذير الخيالي في الواقع. وعليه، فإن هذه الشخصية تجسد الوصلة التاريخية بين حاضر الجزائر وماضيها، والسيادة الفرنسية في الجزائر، وحنين أولاد لاليجو [الشخصية التاريخية] إلى الممارسة الاستعمارية.

استنادا إلى منظور صالح، نلاحظ أن حضور صورة نابليون في إطار رسمي [البلدية] يترجم استفزاز أولاد لاليجو بالمجاهدين، وتكرهم لتضحياتهم وقيمهم الثورية. إذا كانت حرية الإنسان هي جوهر وجوده والقيمة الأساسية لحياته، فإن الصورة هي استلاب لهذه الحرية وبالتالي فهي استلاب للوجود وإهدار للحياة والشباب:

"وصورة نابليون المنقوشة على الحائط. شعر بها تستفزه في حياته وشبابه"⁽¹⁾.

من هنا، تتخذ شخصية نابوليون مدلولها الحقيقي لتتحول إلى كابوس مربع يؤكد الفصلة التاريخية لحاضر الجزائر عن ماضيها.

أما الفئة الثانية، فإنها تقتصر على الشخصيات التناسية الموظفة في نص الرواية والمتفاعلة على مستويات عدة من خلال أدوارها الموضوعاتية المتميزة التي تحيل على عالم دلالي مشترك [التهريب] بين تغريبه بني هلال وتغريبه صالح:

❶ { "لكن يا صالح أحد أتعس سلالة بني هلال التي [قادها الجوع] إلى [التهريب]"⁽¹⁾ }

↓ ↓
ت ب

تأتي الشخصية التناسية [بنو هلال] المتولدة من روابط القرابة لتؤكد تماثل التجربتين على الصعيد التاريخي:

بنو هلال: الجوع ← التهريب
صالح: الجوع ← التهريب

إنه تماثل يدل دلالة قاطعة على أن صالح وجد نفسه في تجربة بني هلال: ❷ { "سنضطر تحت ضغط الجوع [(...) أن [نهاجر إلى الحدود البعيدة]"⁽²⁾ }.

↓ ↓
د ج

استنادا إلى الملفوظين ❶، ❷ نحصل على المعادلة الآتية التي تؤكد تماثل التجربتين:

ب = ج
ت = د

(1) الرواية، ص. 8.

(2) نفسه، ص. 26.

تشتغل ب و ت كسناد support تنهض عليه المكونات الأساسية لتجربة صالح:

1. صالح يعاني من الاقتار
 2. يتذكر تجربة بني هلال
 3. يأخذ العبرة من هذه التجربة ويمارس مهنة التهريب.
- إن هذه الشخصيات التناسية لا ترد في كلام صالح إلا من خلال ما يعرفه عن أفعالها، ولا يتحدد وجودها سوى بنشاطه التأويلي الممارس على تجربتها:
- "...أنا متأكدة أنهم كبار.

وراءهم من يحميمهم. يجنون أرباحا مفرعة مثل تلك التي كان يجنيها أبو زيد الهلالي. أنت طيبة يا الجازية، لكن أهلك الكبار، دياب الزغبى، والأمير حسن بن سرحان، كانوا يقامرون بعيون أطفالنا وبالنفط وبأعناق الفقراء"⁽¹⁾.

في هذا الملفوظ، يسحب صالح نشاطه التأويلي activité interprétative للوضعية الراهنة- المتميزة بتواطؤ السلطة [وراءهم من يحميمهم] مع السماسرة والتجار ضد الفقراء - على رموز بني هلال [أبو زيد الهلالي، دياب الزغبى، الأمير حسن بن سرحان] الذين خلفوا ميراثا اقتصاديا وسياسيا فاسدا يزيد في عمق الهوة الفاصلة بين الأغنياء والفقراء. إن الشخصيات التناسية والسماسرة والتجار؛ يذوبون كلهم في صورة / الكبار / (&،&): إنهم الممتلكون الفعليون للسلطة بفعل امتلاكهم لـ "المال" [يجنون أرباحا مفرعة]. يهدف تمرد صالح عليهم ورفضه لميراثهم المبني على رفض الواقع العملي الراهن إلى فضح ممارساتهم ومكامن السقوط في نظامهم وإجفافهم لحقوق الفقراء:

"سيأتي يوم ونكشف أوراقهم"⁽²⁾.

(1) الرواية، ص. 18

(2) نفسه، ص. 152

إن هذه الشخصيات التناصية تتفاعل بشكل واضح مع الشخصيات المعارضة لمشروع صالح؛ ولعلنا لا نبتعد عن الصواب إذا قلنا إنها تنسجم انسجاما كلياً إلى حد التماهي مع برامجها وجهازها القمعي الذي أحالت عليه صورة /السيف/ مرات عديدة في النص:

- "لا يفهمون إلا لغة السيف وذبح الرقاب"⁽¹⁾.
"ماذا بقي لك من أبي زيد الهلالي غير إرث السيف"⁽²⁾.
"لوح بمعارفه في العاصمة وبسيفه"⁽³⁾

تدل الصور التي رافقت ظهور /السيف/ على العنف والنفوذ والسلطة. إن هذه العناصر التي تشكل لغة الحاكم في تعامله مع الفئة الفقيرة موروثاً، ومتجذرة في التاريخ؛ تتسع دلالتها بحضور /السيف/ المكثف في النص (ورد ذكره 28 مرة) وتنوع أسمائه في الموروث اللغوي العربي (تتيف أسماؤها على ألف)⁽⁴⁾. وقد ورد ذكره أيضاً في قصة "الملكة خرما" من السيرة الهلالية [16 مرة]⁽⁵⁾.

وتشير هذه العملية الإحصائية إلى أن /السيف/ بوصفه شخصية تناصية مركزية يشكل نقطة تلاق وتواصل الماضي مع الحاضر؛ فالسبائبي في الملفوظ الأخير لا يعدو أن يكون وريثاً شرعياً [أبي زيد ودياب الزغبى، والأمير حسن بن سرحان] يجسد الماضي بكل إفرزاته السلبية.

خلافاً لهذه الشخصيات التناصية، تمثل الجازية في طبيوتها [أنت طيبة يا الجازية] المستقبل البديل الذي يبحث عنه صالح ليحققه في ظل طموحاته.

(1) نفسه، ص. 191

(2) نفسه، ص. 9

(3) نفسه، ص. 11

(4) الفيروز آبادي، القموس المحيط، الجزء الثالث، دار الجيل، بيروت.

(5) سيرة بني هلال، تقويم ليلي قریش، دار موفم للنشر، الجزء الأول، الجزائر، 1988، ص. 103.

إن الحديث عن الشخصية المرجعية الموظفة من الخارج على النص يقودنا حتماً إلى تسليط الضوء على الشخصية المرجعية التي توظف من داخل النص وتحيل مباشرة على ماضي الراوي وتجاريه معها.

2-4 الشخصية المرجعية الذاتية:

من الواضح أن هذا "الكائن الورقي" لا يتحقق وجوده إلا من خلال ذكريات الراوي أو ما يسند له من دور أو برنامج سردي في متن القصة⁽¹⁾، فهي لا تشغل سوى بالمرجعية الذاتية، ولا تحيل في تناميها إلا على نفسها:

"شخصية الرواية تولد فقط من وحدات المعنى، ولا تتشكل سوى من الجمل التي تلفظها أو تلفظ لحسابها"⁽²⁾.

ويتم بناء هذا الدليل المنتشر على مساحة القصة بالتدرج إلى أن تكتمل ورتته مع نهاية الرواية. وتدخل في هذه الفئة أغلب شخصيات القصة.

إذا استندنا إلى مقياس الزمن السردى، يمكن أن نقوم بتصنيف للشخصيات ميز فيه بين الشخصيات "الخارجة عن القصة" [الغائبة] *extradiégétique* الشخصيات الداخلية في القصة [الحاضرة]⁽³⁾ *intradiégétique*.

3-4 الشخصيات الغائبة:

تأسس على التوضيحات التي قدمها جيرار جينيت بخصوص الزمن السردى، تشغل هذه الشخصيات الخارجة عن إطار الزمن الحاضر للقصة بالسابقة

(1) نميز في تحليلنا بين القصة *histoire* والحكاية *récit*. القصة هي مدلول *signifié* أو مضمون النص السردى. وتعتبر الحكاية دالاً *signifiant* للنص السردى. أنظر:

- G.Genette, **Figures II**, Seuil, Paris, 1971, p.218.

(2) R. Wellek, A. Warren, *La théorie littéraire, Poétique*, Seuil, Paris, 1971, p. 218.

(3) *diégétique* مشتق أصلاً من *diégèse* بمعنى القصة *histoire*. أنظر المرجع السابق، ص. 72.

analepse، وتتميز بحضورها القليل وبغياب برنامجها السردى؛ نذكر على سبيل المثال المسيرية لخضر والإمام:

أ } "وسط متاعب الوحدة، صدقيني يا المسيرية أني حين أجوع أذكرك بعمق حنان..."⁽¹⁾.

ب } "هه البارح فقط قتلوه. السي لخضر (...) وجدوه عند حائط عتيق، تمام داخل رأسه ثلاث عبارات نارية (...). لم يكن مهربا ماهرا قادرا على ممارسة قذارات اللعبة"⁽²⁾.

ج } "وجه الإمام مخيف. كل يوم أراه في المنام، بشعا ومخيفا. إنه مرعب يا بابا صالح. لم أكن أريد الزواج منه"⁽³⁾.

في الملفوظ (أ)، يتحقق وجود المسيرية الغائبة في مناجاة صالح ويتقدم لجوؤه إليها تخفيفا لمعاناته.

ينقل صالح، في الملفوظ (ب)، خبر قتل العربي. إن هذه الشخصية الميتة الغائبة، تؤكد حضورها النهاية المأسوية للمهرب وخطورة مهنة التهريب.

تتحول لونجا، في الملفوظ (ج)، إلى راوية Narratrice، تسرد ما جرى لها مع الإمام. و تدل الأخبار التي نقلتها على هيمنة التقاليد في مجتمع محافظ ومعيق لتحرر المرأة.

وتملك هذه الشخصيات، الغائبة عن إطار الزمن الحاضر للقصة، وظيفة مزدوجة:

- فهي تمثل بالنسبة للشخصيات الحاضرة ماضيها وتكمل معالمها وتفسر وضعيتها الراهنة.

(1) الرواية، ص. 16

(2) نفسه، ص. 18/17

(3) نفسه، ص. 206

- تضمن للقصة التواصل بين الماضي والحاضر، وتلعب في النهاية دور المخبر⁽¹⁾ informant. إن البعد الزمني يشكل المرتكزات التاريخية للقصة ويدعم مفعول الواقع فيها.

4-4 الشخصيات الحاضرة:

تتموضع هذه الشخصيات زمنيا في حاضر القصة وتختلف وظائفها من شخصية إلى أخرى.

وقد قادتنا قراءتنا لرواية نوار اللوز إلى التمييز بين حالات متعددة تقتصر على ذكر بعض سماتها الآتية:

- الحضور القليل [يسفر عن علاقتها المحدودة بالشخصيات الأخرى].
- تتسم بالغموض في أغلب الأحيان [ذلك أنها تبقى مجهولة لدى القارئ].
- إن أوصافها قليلة جدا لا تمكن القارئ من أخذ صورة واضحة عنها [فالراوي لا يعطي سوى أخبار قليلة ومتفرقة سواء تعلق الأمر بكيوننتها أو أفعالها].
- لا تملك برنامجا سرديا على غرار الشخصيات الأخرى، ولا تملك من القوة ما يؤهلها على تغيير مجرى الأحداث. نذكر من هذه الشخصيات القوال الذي تكمن أهميته، فضلا عن كونه يبرز مظاهر الحياة الدينية عند العرب من خلال سرده لأخبارها القديمة وغزواتها وبطولاتها، في العلاقة الأساسية التي تربطه بالمهريين. إنه يتقصى أخبارهم ويذيعها في الناس [يا السامعين. وقلوبكم كبيرة. عبد الله ولد يامنة قتلته الديوانه⁽²⁾]"، ويتألم لنهايتهم المأسوية [يمسح دموعا تتدحرج على

(1) R. Barthes , **Analyse structurale des récits** , in Communications 3 , p. 11 .

(2) الرواية ص. 46

خده⁽¹⁾] ويراقب حركات الجمارك ويعلن عنها في الحلقة [”الديوانه مشاوا. أخرجي يا الفيران مالغيران. أخرجي⁽²⁾“].

ويظهر هذا الدور الذي يضطلع به الحكواتي مدى تعلقه بحياة القرويين والتحامه بهم، وذلك بخلاف السيد علي التوناني الذي يحمل بروزه المفاجئ أكثر من دلالة. يجسد هذا المؤرخ الصورة الحقيقية للمتقف الذي يعيش في عزلة عن حياة الفقراء:

”يتعاطف مع من كان السيف لغتهم الوحيدة في الكلام⁽³⁾“.

... وفقراء الهاليلين الذين لم يردوا في تاريخ سيدي علي التوناني⁽⁴⁾.

إنها صورة المتقفة التقليدي المعزول عن الشعب وتطلعاته والحليف الموضوعي للبورجوازية والسلطة.

- أما الشخصيات الأخرى، التي ستكون موضوع دراستنا في الفصل اللاحق، فإنها تتميز باسم وصفات وبرنامج سردي. تكمن أهميتها في ديناميتها. ويمكن أن تتأرجح هذه من الإشارة البسيطة إلى التواتر الكثير في الحضور.

4-5 نظام التسمية في الرواية:

لا يمكن أن تشكل الشخصية في النص الروائي ”معطى جاهزاً“؛ فهي:

”ليست في البداية سوى سناد إحييل عليه في الغالب اسم ”علم“ مفتقد إلى مضمون دلالي واضح[فارغ، يسند له الكاتب تدريجياً وعلى امتداد الرواية بعض الوظائف [أو الأفعال] و/ أو تأهيلات يأخذ البطل من خلالها شكلاً ويتحدد⁽⁵⁾“.

(1) نفسه، ص. 46

(2) نفسه، ص. 201/52/45

(3) نفسه، ص. 45

(4) نفسه، ص. 201-52

(5) J. Courtés, Introduction ■ la sémiotique narrative et discursive, p. 62

وإذا كانت الشخصيات في الرواية تنزع هذا المنزع في اقترانها باسم علم، فإنها، في الأعم الأغلب، تظل مقرونة باسم موضوع surnom (صالح بن عامر الزوفري). ويشكل هذا المنحى في نظام التسمية système de nomination ظاهرة فريدة من نوعها في الرواية الجزائرية من حيث هيمنته، وغناه الدلالي، وتبنيته لدور الشخصية الموضوعاتي المؤثر في سلوكاتها وأفعالها.

إن أهمية هذا المنحى تقودنا إلى فحص المكون الدلالي لاسم الشخصية والنظر في خصائصه.

وإذا كان الاسم الموضوع من صنع فعل جماعي، فإننا سننظر إليه من المنظور الاجتماعي، ونعتبره دليلا اجتماعيا بامتياز وذلك لتقيد الروائي، عموما، بالشفرة الاجتماعية وارتكازه على قواعد التسمية في المجتمع.

ولئن كان الاسم يشكل ظاهرة اجتماعية، فإنه سمة من سمات التفرد individuation⁽¹⁾ تسهم في إسقاط قناع الشخصية وبلورة تجلياتها الدلالية. ولهذا، لا نستغرب إذا اقترن الاسم بدلالة: "إن الاسم بوصفه "هيئة متكلمة"، يعلن عن حامله بالمكانة التي يخصصها له والصفات التي يسند لها"⁽²⁾. غير أن هذه العملية تنمهي مع النظام العام للتسمية الذي يستمد منه الاسم، باعتباره دليلا للفردية، قيمته الدلالية.

إن الأسماء المختلفة التي تحملها الشخصيات تسفر عن سمة التمايز وتتم وفق إجراءات متنوعة. لا بد أن نشير، في هذا المقام، إلى أننا لا نأخذ بعين الاعتبار، في تصنيفها، سوى التسميات المتواترة في الرواية:

(1) O.Ducrot, T.Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Seuil, Paris, 1972, p.291.

(2) C.Grivel, Production de l'intérêt romanesque, Mouton, Paris, 1973, p.129.

الجدول 1:

الاسم العام	الاسم الموضوع	الاسم	اللقب	التسميات الفئات
السماسرة والتجار / أولاد لاليجو / بني كلبون / الرجال القديرون / أولاد الكلبة / ابن القحبة	السبايبي	الميلود	ولد القايد البختاوي ولد السي لخضر	الفئة الغنية
	النمس وحش الخلاء الكتاتبي الديوانه	موح		الفئة الوسيطة
	الزوفري بوحلاقي القهواجي السكايري المسيردية	صالح ← عمر ← احميد ← عبدالله ←	ابن عامر ←	الفئة الفقيرة

يساعدنا هذا الجدول، من الناحية المنهجية، على تحديد مقاييس توزيع مختلف الشخصيات في النص الروائي، وضبط القنوات التي يمر عبرها تشكيل المكون الاسمي.

نلاحظ في البداية أن الشخصيات تتوزع تبعا لانتمائها الطبقي [فئة غنية، فئة وسيطة، فئة فقيرة]. وفي صلب هذا الانتماء، يتصدر المكون الاسمي مكانة تخضع لمعايير النسب والمهنة، المركز الاجتماعي والانتماء الجغرافي.

تأسيسا على الاستنتاجات السابقة، يعبر عن الفئة الأولى [الفئة الغنية] وطموحاتها السبايبي ولد القايد البختاوي⁽¹⁾ الذي يعد طرفا فاعلا في نظام المافية السياسية والمالية باعتباره حلقة أساسية مشدودة من جهة بالسلطة ومن جهة أخرى بجهاز التهريب.

إن اسم السبايبي (الموضوع) مستوحى من اللهجة الجزائرية ويطلق عادة على المضارب في التجارة الذي يؤدي دورا بارزا في السوق السوداء. وقد اقترن هذا الاسم في النص بالدور الموضوعاتي المتعلق بمجموع الفقراء:

"كل يا السبايبي أرزاق الفقراء"⁽²⁾.

ويعد البرنامج السردي الذي تتدرج ضمنه أفعاله امتدادا وتوسعا لهذا الدور. يكفي أن نضبط الأفعال والصور التي جاءت ملحقة بهذا البرنامج لنتأكد من رغبته الحادة في استغلال وإذلال الفقراء ووضعهم تحت أقدامه:

- ① - "سيطمح في تركيع القرية بكاملها مثلما كان يفعل أبوه"⁽³⁾.
- ② - "يتصور العالم كله تحت خاتمه الذي يكفي أن يدوره حتى يتجارى الناس حفاة عراة يطلبون مغفرته ومحبه"⁽⁴⁾.
- ③ - "يداه طويلتان"⁽⁵⁾.
- ④ - "معارفه بالعاصمة بعدد النجوم"⁽⁶⁾.

(1) النسب العائلي دال Significatif لأنه يحيل مباشرة على تعامل عائلته مع المستعمر قبل استقلال الجزائر.

(2) الرواية، ص. 24-39

(3) نفسه، ص. 24-39

(4) نفسه، ص. 40

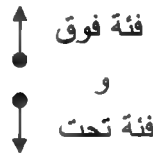
(5) نفسه، ص. 40

(6) نفسه، ص. 40

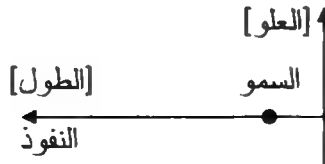
5 } "يخال العالم بأسره تحت أقدامه. وتظهر له الخلائق التي تبحث عن قوتها اليومي، تتجاري نحوه من أجل تقبيل حدودي حصانه الأشم المخيف"⁽¹⁾.

تعبر، في الملفوظ ①، القرينة /س/ في "سيطمح" عن نقة الفاعل [السبايبي] في نفسه وتصميمه على تنفيذ برنامجه المسخر لبسط نفوذه وفرض إرادته على كل الفقراء. وتأتي هذه الإرادة امتدادا لقدرته المستمدة من السلطة السياسية [الملفوظ 4]. إن هذا الوضع السردى المتميز محصلة طبيعية لعلاقة والده بالمستعمر المجسدة في دور القائد الذي كان يستمد قدرته من السلطة الاستعمارية. ومن ثم، فإن القدرة والإرادة في هذا المقام مرهونتان في وجودهما بنسب السبايبي الذي يعتبر الوريث الشرعي للفئة الخائنة التي مازالت تمارس حضورها حتى الآن وعلى جميع الأصعدة، وتلحق أضرارا جسيمة تجاه الفئة الفقيرة.

إن طموح السبايبي في تركيع القرية يمتد لتتوسع دلالاته تدريجيا وبنائيا في الملفوظ ② وعبر /العالم كله تحت/. وتتجسد القرينة الدلالية في الثنائية الضدية: فوق عكس تحت على الصعيد العمودي لتعكس الطابع التقابلي والخلافي بين فئتين متناحرتين:



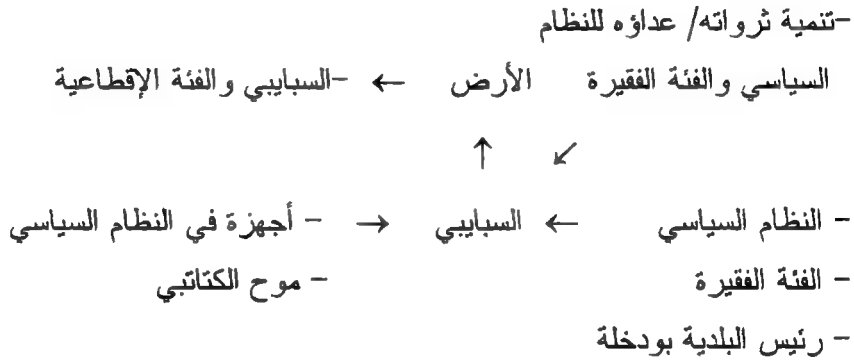
يدل الفوق على /العلو/ و/الرفعة/ و/السمو/، وتحيل تحت على /الخضوع/ و/الركوع/ لمن يملك المال والسلطة. ويتقاطع تكريس هذا الوضع على الصعيد الأفقي [الملفوظ ③] في قيمة /الطول/ [إداه طويلتان]:



(1) نفسه، ص. 40

تقاطعا يعكس نفوذ السبايبي الذي يتجلى بشكل واضح في الملفوظ⁴⁰ وذلك عبر /المعارف/ [الصعيد العمودي]، و/العاصمة/ [يوصفها فضاء مركز القرار]، و/عدد النجوم/؛ إن سموه في نفوذه.

من الواضح أن تجليات هذه القيم ستتصدر برنامج السبايبي الخاص بمعارضته لقرار المرحلة الثالثة من الثورة الزراعية، القاضي بتأميم الأراضي⁽¹⁾، رغبة منه في المحافظة على أملاكه على نحو ما يظهر ذلك في الرسم العاملي الآتي:



في هذا الرسم، يرمي السبايبي بكل قواه إلى لعب أوراقه الأخيرة قبل أن يمسه القرار وذلك "بدفع" رئيس البلدية إلى التنازل عن تأميمها. إذا استندنا إلى منظور السبايبي في النص، نلاحظ أن تحريكه [فعل الفعل faire-faire: "لدفعه إلى التنازل (...)] وإغماض عينيه⁽²⁾ "لبودخلة جاء من منطلقات برنامج سردي سابق احتل فيه السبايبي موقع فاعل منفذ في حملة انتخابية مكن فيها بودخلة من الوصول إلى منصب رئيس البلدية. بتعبير آخر، هو الذي وضعه، وعليه، بالمقابل، أن يعرض عن تأميم أراضيه.

ولئن كان بودخلة قد وضع في ظروف انتخابية تتسم "بالفوضى" و "الفنوية" وتلغي "الإرادة الشعبية"، فإنه أصبح منسجما مع طموحات الفئة الفقيرة برفضه

(1) الرواية، ص. 40

(2) الرواية، ص. 40

الدخول في لعبة التحريك والتحول إلى أداة مسخرة لمصالح السبائي والسماسة والتجار والرجال القديرين (الجدول 1). خرج من منطق "اللغة الوحيدة"؛ لغة السبائي وبعض أجهزة النظام وقرر الدخول في منطق لغة الشعب التي يعبر عنها قرار النظام السياسي. ويبدو تصرفه متحررا من كل قيد فتوي ومن كل رابط. هكذا يواجه رئيس البلدية مسؤوليته وحيدا:

"هددهم بإخراج ملف سرقة إسمنت المدارس وبناء" الفيلات "... (1).

فهو برفضه وتهديده لهم، يدين تدنيس القيم وإخضاعها لخدمة فئة من الناس على حساب الأغلبية. الجميع ضده وهو واحد في مواجهتهم، وجد نفسه "مطوقا" من جميع الجهات، وبالتالي كان الصراع بينهم وبينه حتميا:

"حاربوه حتى الموت..." (2).

فإذا قبل الموت واغتيل في حركة تمرده ["مطعوننا عشر طعنات قاتلة" (3)، "... سخر أياد مجهولة لطعنه" (4)]، فإنه بذلك يدلل على أنه يضحي بذاته في سبيل خير يعتبر أنه يتجاوز مصيره الخاص. فالمواجهة إذن هي بين عامة الشعب "ممثلين" في رئيس البلدية وبين "أولاد لاليجو" [الجدول: 1] ممثلين خاصة في السبائي الذي يعتبر سلطة داخل السلطة؛ حتى أنه قد جعل منها طريقا للوصول إلى بولخة وتصفيته جسديا. إن موح الكتابي الذي ساند صالح في صراعه مع الميلود يجد نفسه "بصمته" ["لو فقط ينطق" (5)] متواطئا مع السبائي الذي يكون قد أزاح عن طريقه جميع المعيقات لتحقيق موضوع رغبته [الرسم العاملي].

(1) نفسه، ص. 11

(2) نفسه، ص. 11

(3) نفسه، ص. 11

(4) نفسه، ص. 40

(5) نفسه، ص. 40

وتأتي أسماء السماسرة والتجار وأولاد لاليجو، وبني كلبون، وأولاد الكلبة، وابن القحبة المستمدة من الذاكرة الشعبية، لتعبر أولا عن حقد صالح الطبقي اتجاه الفئة الغنية، ولتبرز، ثانيا، من خلال ممارسات السبايبي وماضي عائلته، المنحدرات الطبقيّة والتاريخية لهذه الفئة والطرق غير الشرعية التي مكنتها من الاغتناء، والوسائل التي سخرتها [الرشوة] للانفراد بالسلطة الفعلية، ولتظهر ثالثا دورهم الخطير المتمثل في نشاط السبايبي [انظر الجدول 1].

أما الفئة الوسيطة، فإنها تتشكل أساسا من الديوانه [الجدول 1] المشتقة أصلا من الكلمة الفرنسية douane، وتحيل هذه التسمية مباشرة على الوظيفة الجمركية، وتدل في الوقت نفسه على الدور الموضوعاتي للشخصية المتمثل في مراقبة البضائع عبر نقاط الحدود.

غير أن هذه التسمية قد تختفي ليحل محلها تارة اسم مركب "أبناء لاليجو" وتارة أخرى اسم حيوان "النمس" و "وحش الخلاء". يعكس سيم الحيوانية animalité، المدرج في دور هذه الفئة بوصفها أداة مسخرة لقمع الفقراء والتعاطف مع الأغنياء، ممارستها اللا إنسانية اتجاه صالح والمهربين الصغار:

"النمس لا يرحم"⁽¹⁾.

"في قلوبهم قيح"⁽²⁾.

"يجد لذة كبيرة في إيذاء الناس"⁽³⁾.

تشارك هذه الملفوظات في نفس الثقل الدلالي [العداء] لترجم ما لاقته الفئة الفقيرة من قمع وعذاب.

(1) الرواية، ص. 41

(2) نفسه، ص. 41

(3) نفسه، ص. 41

وضمن هذه الفئة، يدخل صالح بن عامر الزوفري. نلاحظ أن الاسم الموضوع /الزوفري/ جاء ملحقا باسم العلم صالح بن عامر ليميز دوره الموضوعاتي عن بقية أدوار الشخصيات الأخرى. ويدل /الزوفري/ المستوحى من الذاكرة الشعبية على الوحدة والعزلة والإقصاء. على أن هذه الدلالة قد تتوسع بالنظر إلى البرامج السردية التي يندرج فيها صالح كبطل لتشمل سمات العذاب والتشرد والاضطراب الناتج عن طبيعية مهنة التهريب.

على عكس الشخصيات الأخرى، يبدو عمر بوحلاقي أكثر ألفة. إن اسمه /بوحلاقي/، المشتق من الحلقة [مجموعة من الأفراد] المحيطة به وهو يروي الأحداث، دليل شعبيته. وتؤكد هذه التسمية التي يتراجع فيها وينحسر دور الحكواتي، من جهة، الأولوية التي يوليها الراوي لاحتكاكه واتصاله الإنساني بفئة الفقراء، ومن جهة ثانية، الروابط المتينة والعميقة التي يقيمها مع هذه الفئة.

إلى جانب هذه الشخصية، يحتل احميدا القهواجي وضعا مركزيا في صلب القصة يتشكل أساسا من علاقاته المتنوعة بأهل القرية. ويتم بناء هذه العلاقات في النص انطلاقا من الدور الموضوعاتي لهذه الشخصية المثبت في تسمية /القهواجي/. ويتزامن حضور احميدا بشكل مكثف في متن القصة مع موت ابنه العربي. في هذه اللحظة المهمة من السرد، تتوقف مغامرة صالح ويتوقف الزمن الحاضر للقصة ليفتح على الزمن التاريخي *temps historique*، المعتبر كسناد حقيقي لأحداث الرواية⁽¹⁾، يتضمن فضاءات الماضي [قبل استقلال الجزائر] التي مارس فيها احميدا أداءاته:

"... فهو حين عاد من الحرب كان يحمل في جيبه عشر فرنكات، كانت رصيده التاريخي كله. اشتغل برادعيا، ثم مزارعا خماسا..."⁽²⁾.

(1) يمثل هذا السناد مفعول الحقيقة التاريخية في النص.

(2) الرواية، ص. 92

ولئن كانت هذه الأخبار القليلة التي ينقلها الراوي من الماضي تمثل خلاصة تجربة احميدا، فإنها لا ترقى إلى البرنامج السردى الخالص الذي يتميز بشكل خاص بالعلاقة الأساسية التي تربط الفاعل بموضوع رغبته. وعلى الرغم من ذلك، تظل هذه الأخبار مهمة ووظيفية *fonctionnelles* إذا أدخلناها في النظام الشامل للنص وأخضعناها للمنظور [الذي يتبناه الراوي في نقل الأحداث] المتمفصل على الثنائية الضدية الآتية: قبل [الاستقلال] عكس بعد [الاستقلال] التي يفسرها الوضع الحقيقي للمجاهد [بعد الاستقلال]. وتكرس هذه الثنائية المعادلة المثبتة في فترة سابقة من البحث:

من جاهد ← لا يملك
من خان ← يملك (1).

غير أن مأساة المجاهد، التي كنا قد طوقنا جانباً من جوانبها في فضاء البلدية، لم تتوقف عند هذا الحد، بل تزداد حدة على صعيد آخر؛ في فضاء السجن أين تنمادى الإدارة في إلحاق الضرر بابنه:

"... حين طلب القهواجي أن ينقل ابنه إلى المستشفى قالوا أن هذه قضية خارجة عن إدارة السجن وأن عليه أن يذهب إلى العاصمة يطلب إذنا بذلك. ظل يدور، وفي النهاية جلس بالقرب من ابنه الذي كان يحتضر، ينتظر لحظة موته" (2).

يدخل القهواجي، في هذا الملفوظ، كشخصية وسيطة، في صراع مع فاعل جماعي [ضمير الغيبة /هم/ في "قالوا"] رغبة منه في نقل ابنه من فضاء السجن إلى فضاء المستشفى، وفي تحقيق برنامج علاجه. غير أن هذه الرغبة سرعان ما تصطدم بمعارضة فاعل لا يفصح الراوي عن هويته؛ إنه ضمير الغيبة /هم/ الذي يذهب ابنه ضحية لنشاطه المعارض، كما ذهب صالح ضحية لنشاط هذا الضمير في مقر البلدية [انظر الفصل السابق]. وهذا يقودنا للقول بأن ضمير الغيبة /هم/ المعارض لطموحات الفئة المجاهدة [صالح، القهواجي ...] ليس في الواقع سوى

(1) نفسه، ص. 95

(2) نفسه، ص. 95

شخصية واحدة تنقسم وتتعدد⁽¹⁾ على امتداد وضعيات سردية تعمل على إفراز سلوكيات خطيرة تهدد وجود وحياة الإنسان.

إن تجليات هذه السلوكيات ستظهر على صعيد آخر، ولكن هذه المرة في فضاء المستشفى أين تصل درجة الإهمال وسوء التسيير إلى ارتكاب جرائم في حق من لا يملك:

"... يا الله كل هذه المجزرة. كانت رجلا المسيردية ما تزالان مفتوحتين عن آخرهما. عيونها بيضاء. دماء على الأرض. بقايا أصابع دقيقة لطفل سقط في اللحظة من رحم موجوع. رأس الصغير مفصولة عن جسده، بطنه مفتوحة، أمعاء تمتد من تحت السرير حتى فتحة الباب (...). ثم فوجئت بقطط هرمة حاولت عبثا أن تضربها وأن تقوم من مكانها لتجمع شتات صغيرها. حين أدركوها كانت قد نزفت حتى الموت"⁽²⁾.

يقدم لنا الراوي، في هذا الملفوظ، وصفا دقيقا للوضع الذي آلت إليه المسيردية ومولودها اللذان يتقدمان كشخصية ضحية *personnage - victime* لتهاون الهيئة الطبية داخل مؤسسة رسمية.

تتجلى دقة الراوي في الوصف في توقفه عند كل طرف من أطراف المولود المبتورة المجزأة والمشتتة. تتحول صورة الأطراف المشتتة بسرعة إلى أكلة قابلة للاستهلاك، إلى بقايا، فضالة تعبث بها قطط المستشفى؛ إنها أخطر وضعية ينحدر إليها الإنسان في زمن صعب، زمن الجرائم المستقلة. والغريب في الأمر أن نفس ضمير الغيبة /هم/ الذي كان وراء تشريد صالح وعذاب القهواجي وضياح ابنه يأتي

(1) تتبدى هذه الشخصية عبر ممثلين متميزين في متن النص:

م^١

م²-م^٣

م^٣

-A. J. Greimas , Du sens II ,p. 49

- J. Courtès , Introduction à la sémiotique narrative et discursive, p. 95

(2) الرواية، ص. 58

هذه المرة وبقوة [حين أذكرها] ليمارس عنفه على المسيردية ومولودها. إن هذه الشخصية التي تنقسم، وتتعدد، ولا يفصح الراوي عن هويتها تحقق في سلوكاتها الخطيرة المثل الشعبي:

”قد ما عندك قد ما تسوى“⁽¹⁾. تقاس كينونة الإنسان بملكه avoir.

لا يمكن أن نفهم هذه السلوكات التي تتضافر وتتشابك في صلب بنية مركبة من النفوذ Pouvoir والملك Avoir والمتعة إلا إذا سامتها ببنية ضديدة نحصل عليها [استنادا إلى الجدول 2] بقلب الأدلة⁽²⁾ Inversion des signes:

الجدول 2:

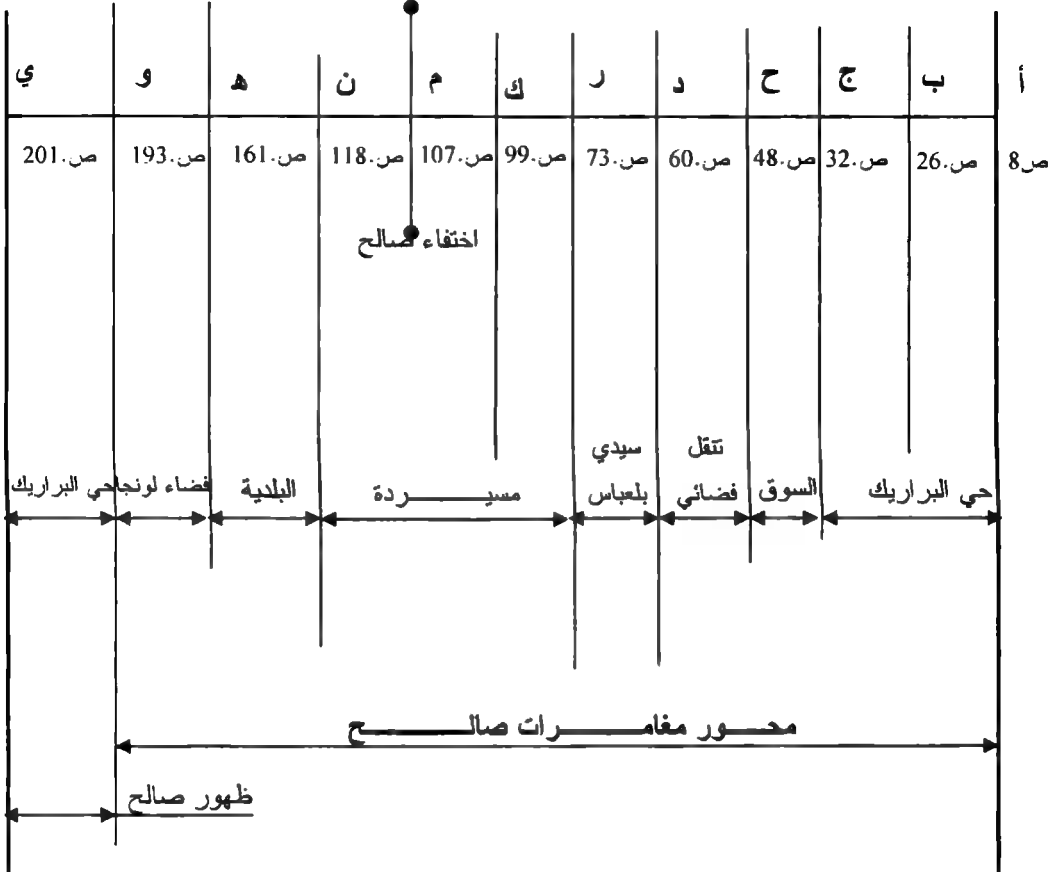
الفئة الغنية	الفئة الفقيرة	
السلطة	اللا سلطة	المفترض
الملك	اللا ملك	المطروح
المتعة	العذاب	المضمر

بهذا الجدول، نكون قد توصلنا إلى تطوير الآليات التي تحكم الشبكة الدلالية للنص وتغذيها. وهي مبنية، على نحو ما رأينا ذلك في المسارين أ وب، والبرنامج السردي ومساراتها الصورية، والجدول 1 و2، على أساس طبقي يتماهي في السياقين الاجتماعي/التاريخي ليجسد صراعا حادا بين فئتين متناحرتين ومتقابلتين: فئة تتحرك من موقع رغبتها في تنمية رأس مالها وتركيع القرية بكاملها وتعذيب أهلها وفئة تتحرك دفاعا عن شرفها وحققها في الوجود والحياة.

(1) نفسه، ص. 108.

(2) J. C. Coquet , Le discours et son sujet , p. 82.

الملحق رقم 1: الرسم الوظيفي للرواية



ببليوغرافيا البحث (مرتبة حسب ظهورها في النص)

- واسيني الأعرج، نوار اللوز، تغريبة صالح بن عامر الزوفري"، دار الحداثة، بيروت، 1983.
- تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، إغاثة الأمة بكشف الغمة، أو تاريخ المجاعات في مصر، دار ابن الوليد ودار الجماهير الشعبية، دمشق، 1956.
- ابن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، دار الجيل، دار لسان العرب، بيروت، 1988.
- إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، إستانبول، تركيا، 1989.
- آفاق، مجلة اتحاد كتاب المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1990، العدد الأول.
- E. Benveniste, **Problèmes de linguistique générale**, Gallimard, Paris, 1974, T. 2.
- C. Duchet, "La fille abandonnée" et "La bête humaine" éléments de titrologie romanesque, Littérature n° 12, p. 52.
- J. Ricardou, **Nouveaux problèmes du roman**, Seuil, Paris, 1978.
- آن اينو، مراهنات، دراسة الدلالات اللغوية، ترجمة أوديت بيتيت و خليل أحمد، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق 1980.
- محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد الكريم العزباوي، مراجعة إبراهيم السامرائي وعبد الستار أحمد فراج، ج2، مطبعة حكومة الكويت، 1967.

- Tomachevski. B. V "Thématique" in **Théorie de la littérature**, Textes des formalistes russes et traduits par T. Todorov, Seuil, Paris, 1965.
- C. Bremond, **La logique des possibles narratifs**, in Communication 8, Seuil, Points, Paris, 1981.
- E. Souriau, **Les deux cents mille situations dramatiques**, Flammarion, Paris , 1950.
- Thomas G. Pavel, **La syntaxe narrative dans les tragédies de Corneille**, Klincksieck, Paris , 1976.
- J. Courtés, **Introduction à la sémiotique narrative et discursive**, Hachette, Paris, 1976
- A. J. Greimas, **Sémantique structurale**, P. U. F , Paris , 1986.
- A. J. Greimas , J. Courtés , **Dictionnaire raisonné de la théorie du langage** , Hachette , Paris , 1979.
- A. j. Greimas , **Du sens II, Essais sémiotiques** , Paris , 1983 .
- Jean Claude Coquet, **Le discours et son sujet**, Klincksieck, Paris, 1985.
- Joseph Courtés, **Analyse sémiotique du discours**, Paris , 1991.
- واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

- بنكراد سعيد، **مدخل إلى السيميائيات السردية**، دار تينمل للطباعة والشر، مراكش، المغرب، 1994
- دانييل ريغ، **قاموس السبيل**، لاروس، باريس، 1983 .
- Groupe d'Entrevignes , **Analyse sémiotique des textes** , P. U. L , Lyon , 1984
- A. J. Greimas , **Du sens** , Paris , 1970.
- J. M. Adam , **Le récit** , P. U. F , Paris , 1991.
- Philippe Hamon, **Pour un statut sémiologique du personnage**, in **Poétique du récit**, Seuil , coll. Points , Paris , 1977
- الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، الجزء الثالث، دار الجيل، بيروت.
- G. Genette , **Figures III** , Seuil , Paris , 1971.
- R. Wellek , A. Warren , **La théorie littéraire** , Poétique, Seuil , Paris , 1971.
- O. Ducrot , T. Todorov , **Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage** , Seuil , Paris , 1972 , p. 291.
- C. Grivel , **Production de l'intérêt romanesque**, Mouton, Paris, 1973

قراءة سيميائية في رواية

عواصف جزيرة الطيور⁽¹⁾

للروائي خلاص جيلالي

⑤ . مقدمة منهجية

سنقتصر في هذه الدراسة على فحص المضامين الدلالية لرواية "عواصف جزيرة الطيور" من خلال تحليل البرامج السردية الأساسية للقصة والرهانات الموجودة بين الفاعلين المنفذين ومواضيع القيمة المستهدفة. وتعد هذه الرهانات في القصة التي بين أيدينا سياسية بالدرجة الأولى وتمس بشكل مباشر العلاقة بين السلطة والشعب في حقبة تاريخية طويلة تبدأ بالغزو الفرنسي للجزائر وتنتهي بأحداث أكتوبر الأليمة التي هزت الجزائر المستقلة في 1988.

تعالج الرواية إذن فترة حاسمة في تاريخ الجزائر قدمت حولها قراءات وتأويلات متباينة وصلت إلى حد التناقض أحيانا وهي خاضعة في الأعم الأغلب إلى استراتيجيات سياسية يتبناها هذا المحلل أو ذاك لتعزيز توجه سياسي مبني سلفا.

في هذا البحث المتواضع، لا نولي أهمية لهذا النوع من الدراسات التي تصدر أحكام قيمة هي إلى الذاتية أقرب منها إلى الموضوعية التي تستمد أصولها من التفكير العلمي المرتكز أساسا على صوغ الفرضيات والتحقق منها في أثناء البحث. ولا ننظر إلى الممارسة النقدية على أنها منبر للدفاع عن قضية سياسية أو أيديولوجية. كما أننا لا نولي أهمية للتحليلات التي تدرس النص من خارجه. لقد أثبتت مثل هذه التوجهات النقدية فشلها في فض الإشكالات التي يطرحها النص على جميع الأصعدة.

(1) خلاص جيلالي، عواصف جزيرة الطيور، المطر والجراد، منشورات مارينور، الجزائر، 1998.

1. رهانات الصراع في الرواية

تبدأ هذه الرواية بوضع مضطرب تقف وراءه "الأمواج الهائجة التي تحاول زعزعة أقدام البرج" [الرواية، ص. 12].

تحتل هذه الأمواج موقع الفاعل المنفذ *sujet opérateur* في برنامج سردي *programme narratif* يرمي من خلاله إلى قلب نظام الحكم الممثل في الهيئة اللافتة "نحن" (تحصنا) التي تتساعل في حيرة عن طبيعة المحرك الذي يثير مكامن كفاءة سياسية تشكلت بشكل فاجأها، على الرغم من أنها تترك تلك المرات العديدة التي وقع فيها الشرخ. إن حضور هذه الهيئة في السلطة لا يمكن للقارئ أن يفهم علته إلا إذا أدرك طبيعة البرنامج الذي تسعى إلى تنفيذه ورهانات الصراع الحقيقية بين السلطة والشعب. يتمثل مصدر الصراع في بداية القصة في الهوة العميقة الموجودة بينهما:

"تأسف على المرات العديدة التي وقع فيها الشرخ، ففرقتنا الأزمة" [الرواية، ص. 11].

ولئن كان التأسف علامة من علامات الحزن والندم، فإنه في ذات الوقت إقرار السلطة بفشلها في تسيير أمور الدولة وهو فشل تكرر مرات عديدة مما تسبب في نشوء الأزمة بين الحاكم والمحكوم. يجدر بنا أن نتساعل، في هذا المساق، عن أسباب نشوئها.

إن هذه الأسباب لا تخرج في جميع الحالات عن حدود الكفاءة السياسية للهيئة الحاكمة والتي تدرج ضمن برنامج سياسي معطى يكون الهدف منه العمل على إرساء دعائم العدالة الاجتماعية والدفاع عن الحقوق الشرعية للمواطن.

1-1 الأبعاد الدلالية لتسيير الفعل السياسي: السلطة/ الشعب/ المثقف

ودون أن نحاول إضفاء تأويلات قد لا يتحملها النص، سنلجأ إلى استقراء الملفوظات السردية في القصة انطلاقاً من نظرية الجهات *théorie des*

modalités. سيساعدنا هذا المنحى المنهجي على النظر بعمق في طبيعة العلاقة الموجودة بين الحاكم وفعله السياسي.

1 { "لن نتوانى في تمزيق رثانا وضلوعنا، عليها تعثر، ضمن أشلائها، على بعض المعادن الثمينة واللائى التي ستضاف إلى أرصدة مالكيها في بنوك المقايضة الشمالية" (الرواية، ص. 13).

2 { "غير أنني لم أتصور أبدا أن تبلغ الأنانية والجشع بأولئك الوحوش (...). تلك الدرجة المقيئة المقرزة لمجرد التفكير في شناعتها التي لا تختلف عن الخيانة الكبرى (...). وهل هناك كلمة أوسع معنى من الخيانة إذا ديست المبادئ ولم الوطن ككمشة تراب ليودع تبراً في الجيوب الشخصية" (الرواية، ص. 61).

3 { "الأغبياء، لم يفهموا موقفى طبعاً وهل فهموا شيئاً في هذه الحياة؟ المذات طغت على أفكارهم وحواسهم فلم يعودوا يرون من الحياة سوى ثلاثة: المال والنساء والخمر. حتى الوطن وضعوه في الجيب حتى لا يفلت منهم" (الرواية، ص. 62).

في المقطع السردي الأول، يسخر الفاعل الجماعي [القاهرون الغلاة] إرادته في تنمية الثروة، ويوجه إنذاراً هو بمثابة التهديد للأمواج البشرية ويؤسس نفسه بالسلطة السياسية التي يملكها فاعلاً مضمراً في برنامج عسكري تكون الغاية منه قمع كل مشروع حامل لبذرة التمرد على النظام. ينبغي أن نفهم التهديد، هنا، على أنه يعبر، من ناحية، على حالة غضبية، ويستعمل، من ناحية ثانية، للدلالة على فعل كلامي يرمي من خلاله إلى إقناع الآخر بالخطر المحدق به. يتضح المضمون الدلالي للتهديد بصورة/تمزيق الرئى والضلوع/. ويحمل التهديد بعده الدال بقوته الردعية التي تجسدها قدرته العسكرية [دبابات وهليكوبترات ورشاشات وجيئات (...)] وقنابل مسيلة للدموع" (الرواية، ص. 11).

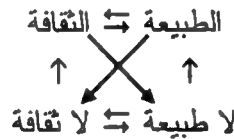
وبالتالي فإن خرق الفاعل لمبدأ حق الأمواج البشرية في الحياة احتمال يبقى واردا وذلك في سبيل تنمية ثروته في البنوك الأجنبية. تأسيسا على هذا؛ "تتحول الإرادة إلى الجهة المؤسسة للعامل الفاعل"⁽¹⁾ ذلك أن علة وجوده في السلطة مرهونة سلفا باشتداد حرصه على جمع أكبر قدر من الثروة والمال. إن الرغبة في الملك تلغي جميع الخدمات المشروعة التي يمكن أن تقدم إلى المواطن. ولهذا فإنه يتصرف في شؤون الدولة وفي حياة الشعب وكأنها ملكه الخاص.

تتحقق صورة /الجشع/ بكل أبعادها الدالة في المقطع السردى الثاني ومن خلال صورة /الوحوش/ الملحقة بالقاهرين الغلاة والتي تدخل في علاقة تنافر مع السمات المميزة للإنسان. تحيل الأولى على عالم الطبيعة بينما تحيل الثانية على عالم الثقافة.

على الصعيد السردى، يبدي الراوي رغبة حادة في رفض عالم الوحوش المثير للنفور والتقيؤ.

ويتحدد مساره على المستوى العميق بنفي القيم التي يفرزها هذا العالم والدعوة إلى تبني القيم المنبثقة من عالم الثقافة. وإذا دققنا النظر في مسار الوحوش، نلاحظ أنه يتحرك في برنامج سردي يهدف إلى نسف كل القيم التي تجعل من الإنسان إنسانا.

يمكن أن نثبت تجليات هاتين العنيتين في المربع السيميائي الآتي:



(1) Jean Caudé Coquet, Le discours et son sujet , Pratique de la grammaire modale , T2 , Klincksieck , Paris,1985,p. 33 .

تقتصر مهمة تسييره لشؤون الدولة على الدخول في وصلة بموضوع قيمة لا يتعدى إطار المال والجنس والخمر كما يظهر ذلك واضحا في المقطع السردى الثالث. إن الراوي لا يعرف نفسه في هذا الإطار لانسداد عملية التواصل بينه وبينهم (لم يفهموا موقفى طبعا). فهو في حالة إحباط ناتجة أصلا عن حرمان هؤلاء للمواطن من حقه الطبيعي في الحياة والوجود. هذه العلاقة ليست مربوطة فقط بتلك الموجودة بين الفاعل وموضوع القيمة بل مؤسسة أيضا على علاقة تكاد تكون تعاقدية بينه وبينهم⁽¹⁾. إن الراوي في هذا المساق ينتقدهم بحكم وجودهم في السلطة لخرقهم العقد الذي يملي عليهم واجبات ولاستحواذهم على مراكز قرار ليسوا أهلا لها. إن الحمولة الدلالية للأغبياء تترجم استياء الراوي من وضع مترد يفنقر فيه الفاعلون السياسيون إلى المعرفة وبالتالي إلى القدرة على تسيير شؤون الدولة وتترجم أيضا قلقه من هاجسهم الأساسي الذي تقف وراءه رغبتهم الحادة في الدخول في وصلة بموضوع قيمة يعتبر فيه الوطن المعادل الموضوعي للمال:

"وهل هناك كلمة أوسع معنى من الخيانة إذا ديسست المبادئ ولم الوطن ككمشة تراب ليودع نبرا في الجيوب الشخصية" [الرواية، ص. 61].

"حتى الوطن وضعوه في الجيب حتى لا يفلت منهم" [الرواية، ص. 62].

ينفتح الملفوظ الأول على تشكّل خطابي configuration discursive⁽²⁾ يحيل على/ الخيانة/ بوصفها مخالفة خطيرة لما تمليه واجبات السلطة، وتظهر تجلياتها في مسارين صوريين يمكن أن نبرزهما على النحو الآتي:

الخيانة



أ {دوس المبادئ ب} وضع الوطن في الجيب

(1) A. J. Greimas , Du sens II , Essais Sémiotiques, Seuil, Paris, 1983, p. 227.

(2) Groupe d'Entrevignes, Analyse sémiotique des textes P. U. L, Lyon 1984, p. 95 .

ينضوي المسار السوري [أ] داخل سياقات مفتوحة على العنف الذي تم به خرق القيم الضابطة لسلوك الإنسان، ويتجانس دلاليا مع المسار [ب] تجانسا يحيل على الخطورة التي وصل إليها وضع يتسم بنهب موصوف ويتحول فيه المستحيل إلى الممكن. إن تحقيق هؤلاء للفعل المستحيل: / وضع الوطن في الجيب/ أضحي حقيقة لا تتوقف دلالتها عند لم هؤلاء للوطن /ككمشة تراب/ بل تتعداه لقطع الشعب عن أعز ما يملك [الانتماء] وإذلاله.

يتجسد المسار السوري للإذلال والقمع عبر برنامج سردي خاص بالرقابة المضروبة على كل ما تكتبه وتنتشره وسائل الإعلام على نحو ما يظهر ذلك واضحا في الملفوظ السردى الآتي:

"سجين أنا إذن. السبب؟ التعليق على خبر نشرته إحدى صحف الجزيرة وتأويله خطأ فالمساس بأمن" المشيخة" ومحاولة تشويه سمعة الشيخ الأكبر حامي الأمة" [الرواية، ص. 46].

يحتل الراوي في هذا المقطع موقع فاعل حالة *sujet d'état* في فصلة عن موضوع قيمة /الحرية/. ينبغي أن نشير في هذا السياق إلى أن التقويم التداولي *sanction pragmatique*⁽¹⁾ من منظور المرسل المقوم يتمثل في بداية الأمر في الحكم الإبيستيمي *jugement épistémique* على تطابق (أو عدم تطابق) البرنامج المحقق من الفاعل مع النظام الخلاقي *systeme axiologique* الذي ينظم العلاقة بين الراوي بوصفه صحافيا والسلطة المجسدة في الشيخ الأكبر؛ حامي الأمة. إن هذه العلاقة مبنية أصلا على العقد المقترح أو المفروض من دوائر السلطة بوصفها المرسل /المحرك *destinateur/manipulateur*⁽²⁾ لكل برنامج صحفي. تأتي هذه الهيئة في نهاية كل برنامج لتحقيق، في إطار التقويم، من

(1) J. Courtés, *Analyse sémiotique du discours*, Hachette, Paris, 1991, p. 212

(2) احتفظنا هنا بالترجمة التي وضعها أستاذنا دانيال رينج - مصطلح *manipulation* (تحريك) في:

- السبيل، معجم عربي/فرنسي - فرنسي/عربي، لاروس، باريس، 1983. وهي الترجمة نفسها المثبتة في:

- سعيد بن كراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، دار تينمبل للطباعة والنشر، مراكش،

تنفيذ العقد. انطلاقاً من الملفوظ السردي المثبت أعلاه، نلاحظ أن الفاعل (الراوي) قدم خبراً مخلاً بذلك شروط العقد [السكوت]. فهو لم يقف عند حدود نقل الخبر الآتي:

"اكتشفت دورية بحرية فجر أول أمس أربعة جنث على أحد شواطئ العاصمة البيضاء" يكون قد رماها البحر" [الرواية، ص. 46].

بل ذهب إلى أبعد من ذلك باكتشافه لأسرار الخبر وتأويله بشكل خاطئ:

"سجين أنا إذن لأنني اكتشفت أسرار الخبر [الرواية، ص. 47].

يعد الفعل التأويلي للراوي خطراً على /أمن المشيخة/. بقي لنا الآن أن نحدد درجة خطورة هذا الفعل من خلال استقراء الملفوظات السردية الآتية:

أ { "لا أحد يريد أن يتحدث عن مصير هؤلاء المختفين، اللهم إلا الرضوخ لتلك الزفرات المبررة بوقائع تاريخ غريب مملوء بالاختطافات" [الرواية، ص. 52]. ..

ب { غير أن الخيط الذي يربط جميع حالات الاختفاء هو أن ضحاياها كانوا يمارسون "السياسة". هكذا يقول سكان المدينة متهمسين [الرواية، ص. 52].

ينبني الملفوظان السرديان على برنامج الاختطاف. وهو برنامج يتوزع زمنياً على حقبة تاريخية غير محددة ولكنها مربوطة بلحظة حاضرة يؤكد فيها الراوي، بوصفه هيئة ملاحظة، على افتقار سكان المدينة إلى الرغبة في الحديث عن مسألة الاختطافات. ولئن كان هؤلاء لا يملكون الرغبة في الكلام فلأنهم يفتقرون أيضاً إلى القدرة عليه. على هذا الأساس، بقيت معرفتهم معطلة على مستوى /الهمس/ لا يملكون القدرة على تبليغها والإفصاح بها /جهرًا/ وذلك خوفاً من بطش السلطة. ويعد الحديث عن السياسة في أبسط الحالات المعادل الموضوعي للموت [ب].

"الجلوزة، تذكرتهم، سيارتهم، خداعهم (...) إنهم يحملونني الآن بعيدا، لا شك أنهم يرمونني في البحر" [الرواية، ص. 66].

هكذا نلاحظ أن السلطة بأجهزتها الأمنية تعمل كل ما في وسعها لتعطيل قنوات التواصل بينها وبين السكان وتثبيت نظام قائم على قمع الحريات الفردية والجماعية. إن عثور الدورية البحرية على الجثث وتبليغ خبر الكشف عنها يقدم مؤسسات السلطة على أنها حاضرة بقوة في حياة المواطن لإغاثته في أية لحظة ممكنة. وهي في الخفاء تعمل كل ما في وسعها لمحاصرته وفرض الرقابة الصارمة عليه على نحو ما يظهر ذلك واضحا في المقطع السردى الآتي:

"وكننت من بين الذين قصدهم رجال الأع للتحقيق معهم
في أمور كنت أعتبرها غريبة: كأن يسألونك عن رمز
الجن في كتاباتك ومغزى البخور في صورك الشعرية،
ولماذا تداوم على تكرار هاتين الكلمتين في مسارك الأدبي
كله؟" [الرواية، ص. 73].

يشكل رجال الأع فاعلا منفذا في برنامج التحقيق يسعى إلى الدخول في وصلة بالمعاني المحملة في الكتابة الشعرية. إن افتقارهم إلى المعرفة يجعلهم يشكون في أي شيء. أضحت المعرفة تشكل خطرا على وجودهم؛ فهم لا يرتاحون للنمط المتقف. إنهم يقرؤون ولا يفهمون:

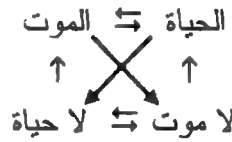
"وهل فهموا شيئا في هذه الحياة؟" [الرواية، ص. 62].

يقوم الراوي بفضح مكامن السقوط في السلطة. أسندت لهم مهام ليسوا مهنيين لها سلفا. المثقف معرض للخطر في أية لحظة. إن خطورة هذا البرنامج تتمثل في الإفرازة المدمرة التي يخلفها:

"...هكذا وجدنتي أسأم وأغرق في سوداوية لا نهاية لها
استوى عندي الليل والنهار (...) وهجرتني الأفكار حتى

خلتني موشكا على نوع من الجنون (...) قد يأتون
ويحققون معي عن: لماذا جننت وما معنى جنونك في هذه
الأيام بالذات" [الرواية، ص. 74].

إن صور /السأم/ و/الغرق/ تشكل مساراً سوريا يحيل مباشرة على اضطراب
الراوي واغترابه. إننا في عالم تحكمه ضوابط صارمة مستمدة من المرسل/
المحرك السياسي وممارسة على المرسل إليه الفاعل. الأوامر عند الأول إلزام
[=/وجوب الفعل/] وعند الثاني، قيود. لا يقوى الراوي على تحملها. إنها لحظة
انهيار عارمة فقد معها سلطته على الكلام والأفكار ووجوده كإنسان. أضحي في
عالم لا يحكمه الزمن الوجودي. عالم متسم باليأس والسوداوية. إن صورة /النهار/
التي تحيل على عالم الحياة اندغمت في صورة /الليل/ المقترنة بصورة /الغرق/
وأضحت محملة بقيمة /الموت/. يمكن أن نفهم هذا الوضع المتردي المتسم بالتوتر
والقلق الذي آل إليه الراوي من خلال المربع السيميائي الآتي:



إن الرقابة المفروضة عليه أفقدته عقله وحركته في بداية الأمر للتخلي عن
حياة يحكمها نظام قيم جرده من حقه في التعبير والوجود ودفعه بعنف في منطقة
فقد فيها القدرة على التمييز والسيطرة على العقل بوصفه القوة المنظمة لسلوك
الإنسان. لهذه الاعتبارات، يبدو الراوي رافضاً لعالم لا يعرف نفسه فيه ومضطرباً
في منزلة وسطى بين الحياة والموت وراغباً في ولوج عالم تحكمه قوانين لا يخضع
لها العقل. إن نزوعه إلى هذا الفضاء ناتج أصلاً عن الفعل الإغرائي الذي يمارسه
عليه الجنون ["أغرائي دخول عالمه" الرواية، ص. 74]. يمكن أن نوضح هذه
التخريجات الدلالية في الرسم الآتي:

الحياة الموت

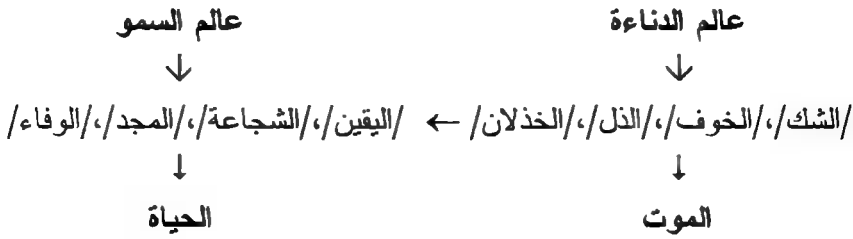
↗ ↑

اللا حياة

غير أن الراوي سرعان ما يدرك خطورة اللعبة التي استدرجه إليها الجهاز القمعي للسلطة، فبدأ يخرج تدريجيا من الهوة العميقة التي أقحم فيها [منطقة اللا حياة]، ويدخل في عالم اقتنع بضرورة تغييره [عالم الحياة]. نلمس هذا التحويل الذي مس البنية السردية في الملفوظات الآتية:

"...الشك، الخوف، الذل، الخذلان، وما يشابهها من مشاعر دنيئة خسيسة، هل تلازمنا إلى الأبد أم سنقبل يوما على استئصال جراثيمها الخبيثة" [الرواية، ص. 74].

بهذا الشكل بدأت تتشكل عناصر كفاءة الراوي لتحقيق أداء التمرد على الوضع. نلاحظ هذا التشكل على مستوى جهات /الوجوب/ و/الإرادة/ و/القدرة/. ويمكن أن نفهم حقيقة هذه الجهات التي كان يفترق إليها إذا انتقلنا إلى الصعيد الخطابى حيث نلاحظ أن صور /الشك/، /الخوف/، /الذل/، /الخدلان/ المحملة بقيمة الدناءة تأتي لتفرز تشكلا خطابيا configuration discursive يحيل على الحالة الشعورية للراوي. وهي حالة متسمة بشعور يعبر عن رفضه لقيمة الدناءة ورغبته في السمو المجسد في صور/اليقين/،/الشجاعة/،/المجد/،/الوفاء/. هذه الصور وإن كانت غائبة، فإنها حاضرة بقوة حضورا يعكس وضعا سرديا جديدا متسما بثقة الراوي في نفسه [سنقبل يوما على استئصال جراثيمها الخبيثة" (الرواية، ص. 74)] وعزمه على تحيين مشروع [استئصال الجراثيم الخبيثة للمشاعر الدنيئة] تنصده رغبة في الانتقال من عالم الدناءة إلى عالم السمو:



إذا نقلنا هذه المعطيات على الصعيد العميق، يمكن أن نفهم أهمية هذه النقلة التي تمثل استعادة الراوي لوعيه وخروجه التدريجي من اللاحياة [منطقة الجنون] إلى الحياة [منطقة العقل والوعي]:

وتتم هذه العملية من خلال نفي الراوي لقيمتي الموت والجنون وتأكيد رغبته في الدفاع عن حقه في التعبير والحياة والوجود:



وإذا كان الراوي مقتنعا اقتناعا كليا بضرورة تغيير الوضع وتحقيق المشروع على النحو الذي ارتضاه لنفسه، فإن الاغتيال حال دون تحقيقه لهذه الرغبة:

"فنهاية هذه الصفحات غامضة، بل خطيرة وكأنني بكاتبها قد مات وهو يكتبها، وبدقة عندما وصل إلى الاقتناع بشيء خطير (لاحظوا أنه أنهاها بعبارة: وسرعان ما رحلت أقنع نفسي أن..." [الرواية، ص. 76].

"يحتمل جدا أن رجال "الأع" الذين يطاردونه، كما أثبت ذلك في مخطوطه، يكونون قد فاجأوه وهو يكتب فأخذوه إلى مكان ما أو قتلوه" [الرواية، ص. 74].

استنادا إلى هذا المقطع السردى، نلاحظ أن السلطة بجهازها الأمني المحكم تفصح عن حقيقة كينونتها المتمثلة في مطاردة أو اختطاف أو اغتيال كل فاعل يدلي برأي مخالف لها جهرا أو كتابة. يجد الفاعل نفسه في جميع الحالات أمام أمرين:

إما أن ينضم إلى السلطة فيعرب عن توافقه مع قيمها فيتماها في نظامها وتكتب له الحياة ومتعها أو يعرض عنها ويحقق وجوده في معارضتها فيموت. يمكن أن نلمس هذه الممارسة بوضوح في المقطع السردي الآتي:

" . . . بوجبل النقابي الذي رفض الانضمام إلى "المشاخ" فأخفوه إلى الأبد عقابا له عن عصيانه وعقوقه بسكناه حي جبل "شعبي" بدل. الفيلا التي منحها له الشيخ الأكبر في حي "المشاخ" [الرواية، ص. 51].

يرتكز هذا المقطع على بنية التبادل⁽¹⁾ structure de l'échange التي تشيد على تماثل القيم المبدلة (م \approx 1 م⁽²⁾). إن الشيخ الأكبر بوصفه فاعلا سياسيا محركا يقدم هدية [فيلا] للنقابي بوجبل لتحقيق بذلك نقلته من فضاء شعبي إلى فضاء رسمي [حي المشاخ]. وفي مقابل ذلك يقدم له بوجبل هدية ضديدة contre-don وهي الانضمام إلى المشاخ والتنازل عن الدفاع على حقوق العمال نقاديا لأي صراع اجتماعي محتمل قد يهدد وجود السلطة مؤديا بذلك إلى وضعية متوازنة مناسبة للحالة العادية للعلاقة بينه وبين السلطة. تأسيسا على هذا، تقوم بنية التبادل، على الأقل على الصعيد النظري، على عقد ائتماني contrat fiduciaire ضمني بين الطرفين. يكفي أن يرفض أحدهما قيمة الهدية ليفسخ العقد. وهذا ما وقع بالضبط في الرواية التي بين أيدينا. بوجبل النقابي رفض الدور الموضوعاتي rôle thématique الذي أسنده إليه. وهو رفض دال لاعتبارات عديدة:

(1) A. J. Greimas, J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette, Paris, 1979, p. 114.

A. J. Greimas, Du Sens II, Seuil, Paris, 1983. p. 39/44

(2) م = موضوع القيمة.

على هذا الأساس "نفترض إقامة التماثل بين الموضوعين معرفة سابقة حول قيمة القسيم. و يقوم التبادل المتوازن على الثقة المتبادلة. و بعبارة أخرى، على عقد ائتماني، ضمني أو صريح بين المساهمين في التبادل. تأسيسا على هذا، إذا كان التبادل بوصفه شكلا من أشكال تبليغ القيم يملك، على وجه الدقة، بنية محددة، فإن تأويله مرهون أساسا بشكل العقد الذي يتقدمه ويؤطره. و يتحمل هذا الشكل كل تحركات مقولة الكينونة والظاهر". انظر:

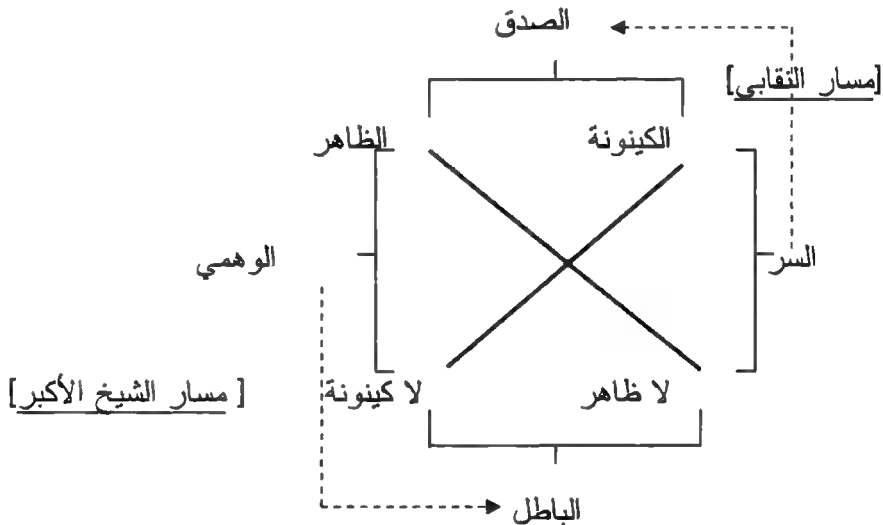
-A. J. Greimas, Du Sens II, Seuil, Paris, 1983. p. 43 .

أولاً: إن قبوله يعني بكل بساطة خرق العقد بينه وبين العمال وتخليه في ذات الوقت عن تأدية دوره القيادي المحرك والمعبي، ويعني من ناحية ثانية التنازل عن إرادته وقدرته على الدفاع عن حقوق العمال.

ثانياً: نلاحظ من جهة ثانية أن مجرد تفكير الشيخ الأكبر في الهدية يعد اعترافاً منه بأن الوضع الذي يوجد عليه العمال مترد للغاية والحل الوحيد للحيلولة دون تمردهم على السلطة هو امتصاص غضبهم عن طريق احتواء ممثلهم بتجريد كفاءته من القدرة والرغبة [فعل اللافعل].

ثالثاً: إن رفض النقابي للعرض يعني رفض الدخول في لعبة السلطة وتمرده على القيم التي يمررها نظامها. ويعني الوفاء لقيم النظام الذي ينتمي إليه ولطموحات العمال التي أخذ على عاتقه الدفاع عنها.

يمكن أن نفهم حقيقة اللعبة التي أراد الشيخ أن يحشر فيها النقابي باللجوء إلى المربع التصديقي carré de vérédiction⁽¹⁾ الآتي والخاص بالظاهر paraître والكينونة être:



(1) لمزيد من التفصيل حول هذه المسألة، انظر :

- J. Courtés, *Analyse sémiotique du discours*, Hachette, Paris, 1991, p. 116 .

يقدم الشيخ الأكبر للنقابي ظاهراً يعبر عن فاعل سياسي يفكر في شؤون الرعية ويسهر على إرساء دعائم العدالة الاجتماعية، فهو يتظاهر بأنه يفكر في وضعه الاجتماعي ويبيدي رغبة حادة في نقله من سكن في حي "شعبي" إلى فيلا في حي "رسمي" [حي المشايخ]. ويقدم له الهدية [فيلا] عربونا لصدق نيته. كنا قد وضعنا أعلاه الأسباب التي جعلت النقابي يرفض عرض الشيخ الأكبر. يعني هذا الرفض إسقاط قناع السلطة [الشيخ الأكبر] ويظهر بذلك وضعيتها الوهمية وهي وضعية باطلة للاعتبارات السالفة الذكر. لقد أخطأ الشيخ الأكبر في توقعاته ولم يفكر في جميع الاحتمالات الممكنة. إن خروج النقابي من وضعية سرية وانتقاله عبر نفي الظاهر إلى الوضعية الصادقة تشكل مفاجأة لم تخطر ببال الشيخ الأكبر نتج عنها اضطراب في الوضع انتهى باغتيال النقابي.

انطلاقاً من المعطيات النصية، وتأسيساً على الملاحظات السابقة، يمكن أن نسجل، على مستوى القصة، القطيعة الموجودة بين السلطة والشعب، وغياب قنوات التواصل بينهما على جميع الأصعدة. وقد لجأ الراوي منذ بداية إلى تنويع زوايا النظر لهيئات تلفظية تروي من موقع تجربتها ما وقع لها من أحداث مأسوية تسببت فيها السلطة. إن هذه التجارب هي بمثابة الشهادات الحية تجري مجرى الحجة على الممارسات القمعية للسلطة وهي حجة تلغي علة وجودها في هرمها مادام حضورها لا يمثل الشعب ولا يخدم إلا فئة قليلة وهي فئة "المشايخ". على هذا الأساس، نلاحظ أن استراتيجية الخطاب، في هذه الرواية، تركز أساساً على آلية منطقية يتم فيها بناء الفعل الإقناعي من داخل النص وعلى أساس الوضعيات السردية المفترزة على الصعيد السطحي وانطلاقاً من برامج سردية محكومة سلفاً برهانات صراع الفاعلين في صلب النص. وهي رهانات خطيرة تمس إشكالية السلطة في تفسير شؤون الرعية وتصدع العلاقة بين السلطة والشعب من ناحية والسلطة والفئة المثقفة من ناحية ثانية. إن هذه الأزمة ناتجة أصلاً عن نظام سياسي متآكل من الداخل تحكمه مجموعة من القيم المضطربة [مصادرة الحريات الفردية والجماعية، الاختطافات، الاغتيالات] مسخرة لـ "وضع الوطن في الجيب". إن سوء التفسير الذي يقف وراء

الوضع المهترئ الذي آلت إليه البلاد يشكل حقيقة هي بمثابة الرسالة التي يحرص الراوي على "نشرها حتى لا يسجن التاريخ" [الرواية، ص. 52]. فهو يسعى إذن إلى تحرير التاريخ باستشارته. يضع الكاتب في احتلاله لموقع المرسل المحرك منذ البداية القارئ وجها لوجه مع نص تاريخي ويؤسس الرواية عليه. ويتقدم كوسيط بين لحظة حاضرة [زمن الكاتب] ولحظة ماضية [زمن الأمير عبد القادر]:

"أعلم أن هذا الإقليم، منذ دخل في حيز العمران، مأوى الفتن وعش الأهوال والمحن ومنترى الملوك والثوار ومطمح نظر الكبار والصغار، فما هدأت لأهله روعة ولا طابت لهم فيه هجعة ولا خيم بساحته أمن، ولا فارقه الروع والوهن ولا خلا منه زمان من قراع الكتائب ومفاجأة المصائب والنوائب.

ومع هذا، ترى مساجده ومدارسه بالعباد والعلماء عامرة، ومجالسه بالآذكار وأنواع العلوم زاهرة" [تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر].

يحتل الخطاب الروائي موقعا تناصيا⁽¹⁾ intertextuel بما أنه يلتقي ويتقاطع مع الخطاب التاريخي الذي يتصدر نص الرواية ويفتتحه. فهو بعبارة أخرى يمارس عليه سلطته بمعنى أن النص يشتغل ضمن أطره الدلالية المحددة سلفا. وسوف نلاحظ أن المسارات الصورية التي تحكم هذا النص على نحو ما سنبين ذلك لاحقا ستوزع بطريقة أو بأخرى لتتماهى في أشكال سردية وخطابية عبر التناظرات الدلالية التي تضمن تجانس النص.

2-1 التحليلات الدلالية للخطاب التاريخي في النص الروائي

إن تصدير الرواية بنص ذي طبيعة تاريخية وإسناده لهيئة تلفظية (الأمير عبد القادر) مرجعية référentielle معناه أن الكاتب يؤسس منذ البداية القارئ فاعلا في برنامج تكون الغاية منه التحري عن المعرفة التاريخية بوصفها موضوع جهة

(1) Louis Panier, Le discours d'interprétation dans le commentaire biblique in: Introduction à l'analyse du discours en sciences sociales, Hachette, Paris, 1979, p. 251.

objet modal أساسي. ينبغي أن نفهم الموضوع في هذا المساق على أنه عنصر أساسي يدخل في تشكيل كفاءة القارئ. وهو إلى جانب العناصر الأخرى يؤسس القارئ فاعلا منفذا في برنامج تكون الغاية منه التحري عن الحقيقة التاريخية والدخول في وصلة بها. إنه يضع النص في رحم الأحداث التاريخية التي عرفتها البلاد. ولهذه الاعتبارات، يحتل الكاتب موقع المرسل المحرك الذي يفعل القارئ لممارسة نشاط معرفي في سبيل بناء معرفة تاريخية تشكل خلفية لتأويل وفهم ما وقع في الزمن الحاضر. فهذه الدعوة الصريحة لتحرير التاريخ تشغل في الاتجاه المعاكس تماما لبرنامج الفاعل المضاد المجسد في السلطة والرافض للتاريخ. ولئن كان الفاعل المضاد ينظر إلى التاريخ على أنه /غير ضروري/ [لا وجوب الكينونة]، فإن الكاتب - في استشارته هيئة مرجعية تجسد فاعلا معارفا وفاعلا منفذا - يعتبر التاريخ /ضروريا/ [وجوب الكينونة⁽¹⁾]. وإذا كانت السلطة حريصة على سجن التاريخ فلأنها راغبة في البقاء على المستوى الظاهر مفتقرة في ذلك إلى هذه القدرة [ص. 136/135] على ولوج كينونة تجليات الفعل الإنساني. من هنا فإن التاريخ ليس فقط موضوعا لخطاب يسجل وقائع حدثت بالفعل في الماضي بل

(1) J. C. Giroud, Apologie pour l'historien, Analyse d'un article de Lucien Febvre in: Introduction ■ l'analyse du discours en sciences sociales, Hachette, Paris, 1979, p. 132.

- يقدم جون كلود جبرو دراسة رائدة في مجال البحوث السيميائية التابعة لمدرسة باريس. ويعد هذا الإسهام العلمي المتميز قراءة من القراءات الممكنة لخطاب لـ لوسيان فيبر حول الممارسة التاريخية ترمي إلى تأسيس وتوضيح الطريقة التي يبني بها التاريخ. وقد لاحظ الباحث أن الفقرات الثلاثة الأولى من نص لوسيان فيبر تسعى إلى طرح موضوع انتحري التاريخي. فيما تهدف الفقرات الثلاثة الموالية إلى توضيح الشروط الضرورية والعمليات اللازمة لامتلاك الموضوع المحدد سلفا. وتقدم الفقرات الثلاثة الأخيرة نموذجا لفعل المؤرخ الذي انتهى إلى امتلاك الموضوع. وقد سمحت له هذه الملاحظات بتجميع الفقرات وفق مختلف المقامات التي تشغل عليها العلاقة فاعل/موضوع. انطلاقا من هذا الوصف الأولي، أشار إلى إمكانية تحديد مظهرين من الخطاب مناسبين للحظتي التنظيم السردية:

أ- سياق امتلاك الموضوع "المعرفة التاريخية": يتعلق الأمر هنا بفعل يفترض وجود كفاءة

ب- تبليغ الموضوع: يبلغ الموضوع الذي امتلكه الفاعل الكفاءة إلى المرسلين إليهم. ويرى الباحث أنه إذا أردنا تحديد تجليات هذا التنظيم انطلاقا من التاريخ، يمكن أن ينظر إلى هذا الأخير بوصفه موضوعا قابلا للتحديد وفق طريقتين: إما بالنظر إلى الفعل المنتج، يعني باعتباره حدا لبرنامج الامتلاك، وإما بالنظر إلى علاقته بالمرسلين إليهم وفي هذه الحالة ينظر إلى التاريخ بوصفه رهانا للتبليغ.

إنه موضوع لخطاب اجتماعي. نلمس هذه المسألة في النص الذي قدمه الكاتب. فهو ينبه منذ البداية إلى الاضطرابات والتمزق الاجتماعي الممتدة في هذا البلد عبر حقب تاريخية متوغلّة في زمن محدد بانتقال هذا البلد إلى العمران⁽¹⁾ وتأكيداً لهذه المعرفة الراسخة لدى الكاتب، نلاحظ أن الفقرة الأولى تحكمها مهيمنة دلالية تحيل على عالم مشحون بالحروب المتواصلة والموت. نستشف ذلك من خلال الحقل المعجمي الآتي:

{

 الفتن، الأهوال، المحن، الروع، الوهن،
 الغزو، قراع الكتائب، المصائب، النوائب.
الحروب والموت

غير أن المقطع الثاني من هذا النص يفرز قيما مجسدة في فضاءين يعد الواحد منهما امتدادا للآخر ويحيلان على عالم متصف بقيم السلم والتسامح. وي طرح هذا المقطع إشكالا في غاية التعقيد بالمقارنة مع المقطع الأول. كيف يمكن أن تكون المساجد والمدارس عامرة والأذكار وأنواع العلوم زاهرة والبلد ممزق وعرضة للمصائب والنوائب والغزوات المتصلة، وأهل البلد في اضطراب وقلق كبيرين. كيف يمكن أن نوفق بين السلم والتسامح والحياة والحروب المتواصلة والموت؟ حتى نرفع حدود التناقض الموجود على هذا المستوى، سنلاقي هذا النص بالسياقات السردية التي يحيل عليها والمضامين الدلالية التي يتفاعل معها استنادا إلى التناظر الدلالي⁽²⁾ isotopie sémantique.

(1) العمران: ما يعمر به البلد ويحسن حاله بواسطة الفلاحة والصناعة والتجارة وكثرة الأهالي ونجح الأعمال والتمدن [المعجم الوسيط].

(2) نستعمل مصطلح التناظر للدلالة على "مجموعة مكررة من المقولات الدلالية التي ترد القراءة الموحدة للحكاية ممكنة ومتجانسة".

لمزيد من التفصيل حول هذه المسألة، انظر:

- A. J. Greimas, *Sémantique structurale*, P. U. F, Paris, 1986, p. 87 .

انطلاقاً من الدلالات المحورية المسجلة في النص الافتتاحي للأمير عبد القادر، نلاحظ أن القصة تشير إليها مباشرة لإقناع القارئ بحقيقة ما يجري في اللحظة الحاضرة وأن الخطاب السردى محمل بحقيقة تاريخية.

إن المقولات المسجلة في النص تشكل إطاراً لخطاب مرجعي [تاريخي] تجسده قصة تروي وقائع حدثت في الجزيرة وتظهر تجلياتها في المقطع السردى الآتي:

"خلال تلك الأيام العصيبة داهمنا تاريخ الجزيرة بأهواله ومحنه وكوارثه المتلازمة عصراً بعد عصر" [الرواية، ص. 19].

يلتقي هذا الملفوظ بالنص الافتتاحي للأمير عبد القادر من حيث العلاقات الدلالية التي يفرزها تفاعل النصين في إطار التواصل الكلامي communication verbale⁽¹⁾. يمكن أن نلمس مظهرات هذا التفاعل⁽²⁾ في الحمولة الدلالية المشتركة بين النصين على النحو الآتي:

النص الافتتاحي الموضوعة الزمنية⁽³⁾ النص الروائي الموضوعة الزمنية

/الفتن/	منذ دخل في حيز	/الأهوال/، /	... عصراً بعد
/الأهوال/، /المحن/	العرمان.	/المحن/،	عصر.
/الروع/، /الوهن/،		/الكوارث/.	
/المصائب/،			
/النوائب/.			

- A. J. Greimas, J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette, Paris, 1979, p. 197 .

- A. J. Greimas, Du Sens, Seuil, Paris, 1970. p188 .

- J. Courtés, Analyse sémiotique du discours, Hachette, Paris, 1991, p. 186

(1) Tzvetan Todorov, Mikhaïl Bakhtine, Le principe dialogique suivi des écrits du cercle de Bakhtine, Seuil, Paris, 1981, p. 96

(2) يستعمل هذا التفاعل للدلالة على عملية التناص intertextualité. أنظر المرجع أعلاه.

(3) إن الموضوعة الزمنية localisation temporelle التي تركز على إجراءات الفصل والوصل الزمنيين

تقطع وتنظم التتابعات الزمنية مشكلة بذلك إطاراً تستقر فيه البنيات السردية. أنظر:

- A. J. Greimas, J. Courtés, o. p. p. 388 .

يمكن أن ننقل هذا الجدول على الصعيد الدلالي على النحو الآتي:

النص الافتتاحي	الموضوعة الزمنية	النص الروائي	الموضوعة الزمنية
الحروب لمتصلة/الموت	قبل/الآن/بعد	الحروب المتصلة/الموت	قبل/الآن/بعد

استنادا إلى هذا الجدول، نلاحظ أن التواصل الاجتماعي الممكن توطئه حروب متصلة وبشكل تعاقبي؛ فـ/البعد/ في النص الافتتاحي هي /الآن/ في النص الروائي ذلك أن الراوي بوصفه هيئة لافظة حاضرة يقدم نصا يروي أحداثا وقعت بالفعل وينقل شهادة هي بمثابة الحجة على ما وقع ويقدم في الوقت نفسه تأويل مؤرخ لما سيحدث غدا؛ وهو تأويل مبني على المعاينة والملاحظة لوضع اقتصر فيه المؤرخ على منظور يغطي ما جرى لأهل "هذا الإقليم". ولئن كان الراوي أولى أهمية خاصة لهذا المنظور، فإنه سكت، على الأقل في النص الذي بين أيدينا، عن الفاعل الحقيقي الذي يقف وراء المأساة التي لحقت بأهل الإقليم. حتى لو سلمنا بوجود الفاعل المستعمر [مطمح الكبار]، فإن الإشكال يبقى قائما بخصوص الفاعل في المراحل السابقة على الفترة الآتية للراوي [قبل 1830].

"خلال تلك الأيام العصيبة داهمنا تاريخ الجزيرة بأهواله ومحنه وكوارثه المتلازمة عصرا بعد عصر" [الرواية، ص. 19].

الراوي هنا يشمل أناه الذي يعبر عن فاعل جماعي بوصفه موضوعا يمارس عليه التاريخ سلطته. فهو لم يكن يتوقع الوقع العنيف لبـ/الأهوال/ و/المحن/ و/الكوارث/ ولم يكن مهينا لتلقيه. نستشف ذلك من خلال الحمولة الدلالية للوحدات المعجمية الآتية:

/الأهوال/: الأمر الشديد. الخوف والرعب.

/المحن/: البلاء والشدة.

/الكوارث/: النازلة العظيمة.

يقدم هنا التاريخ على أنه مجموعة من الأحداث المتمسة بـ/الشدة/ و/الباعثة على /الخوف/ و/الرعب/. ينبغي أن نفهم الحدث هنا على أنه تغيير في الوضع الاستراتيجي للفاعل. يعني بوصفه فعلا يقوم به فاعل فردي أو جماعي على أن يكشف ويؤول هذا الفعل فاعل عارف cognitif غير فاعل الفعل نفسه. فهو في هذه الحالة يحتل موقع العامل الملاحظ الذي ينقل لنا من زاوية خاصة ما وقع. وهي زاوية تغطي مجال الفاعل الضحية. حتى نفهم حقيقة ما وقع، ينبغي أن نبحث في مواقع نصية أخرى عن العناصر التي يمكن أن تساعدنا على رفع الالتباس حول حقيقة الفاعل الذي مارس العنف على أهل هذا البلد. يمكن أن نشير هنا إلى أننا لا نحتفظ إلا بالعناصر المتوافقة مع المنظور المنهجي الذي نتبناه في سبيل فض بعض الإشكالات التي يطرحها النص الذي بين أيدينا.

إن الأيام العvisية التي أشار إليها الراوي بدأت تتحدد زمنيا وبشكل تدريجي في قصة وإن شيدت على أسطورة، فإن أحداثها التي وقعت بالفعل أحدثت وضعا جديدا يتسم بالاستقرار. وقد بدأت هذه الأحداث، على نحو ما يروي ذلك سيدي منصور لشجرة البلاطان الضخمة، بإحداث اضطراب في الجزيرة بالغزوة التي قادها شارل كان في سنة 1541. تلتقي هذه الغزوة بالتنبيه الوارد في المقدمة الافتتاحية التي صدر بها الكاتب الرواية. والتي تشير إلى أن هذا الإقليم أضحي "مطمح نظر الكبار والصغار" [الرواية، ص. 7]. إن الأيام العvisية في هذا المساق هي محصلة للبرنامج العسكري الذي قام به الفاعل المنفذ شارل كان في سبيل الاستيلاء على الجزيرة:

"هاجم (شارل كان) هذه الجزيرة سنة 1541 وهو يقود بحرية ضخمة بساندها فرسان (...) غير أن فرسانه وأسطوله فشلوا في الاستيلاء على بيضائنا الناصعة" [الرواية، ص. 7].

لا يحدثنا الراوي، في هذا الملفوظ، عن الفاعل المنفذ في البرنامج المضاد الذي نجح في المحافظة على "البيضاء الناصعة" وعن كفاءته في تحقيق الأداء

العسكري وعن استراتيجيته الحربية. وفي مقابل هذا، فإنه اختار زاوية الفاعل المعتدي *sujet agresseur*. إن العلاقة بينهما محينة *actualisée* في برنامج سردي يشتغل فيه التاريخ الذي يحمل شكلا مؤنسنا، من المنظور الزمني، اشتغالا متصلا ومستمرًا تظهر تجلياته على الفاعل الجماعي في الأهوال والمحن والكوارث الباعثة على وضع متسم بالحرب والموت. يتخذ هذا البرنامج شكل القدر المحتوم الذي لا فكاك منه. ذلك أن الفاعل الجماعي معطل ومشلول على جميع الأصعدة لا يملك القدرة على القيام بفعل مضاد يوجه لفعل التاريخ. من هنا، فإنه يخضع خضوعا كليًا لسلطته. فهو لا يستطيع أن يغير مجراه في اتجاه الحياة. ولا يستطيع أن يصنعه بما أنه لا يملك القدرة على مواجهته. إن الخطاب يرمي إذن إلى قلب الوضعية الأولية بإظهار الحاجة والضرورة إلى التاريخ. ويعني تغيير مجرى التاريخ امتلاك سلطة صناعته وكتابته والدفاع عن الذاكرة التي تحمله. إذا كانت الذاكرة الجماعية مغيبة، فهذا يعني أن حقها في معرفة حاضرها المرهون بماضيها مهضوم. ومن ثم وجب علينا أن نبحث عن مالك هذه السلطة في موضع آخر بما أن التاريخ لا يمكن أن يضطلع بمهمة المرسل المحرك والصانع للأحداث المتعاقبة.

يظهر المرسل / المحرك الحقيقي للتاريخ في السلطة الممثلة في شيخ الجزيرة وجلوزته:

"لم يعجب ذلك شيخ الجزيرة وجلوزته، فألقوا القبض على سيدي منصور واجتثوا الشجرة الطيبة من جذورها، ولما أصر الرجل على صحة النبأ، خوزقوه وشنعوا بجسده، بعرضه سبعة أيام وسبع ليالي (...). ترهيبا لكل من تسول له نفسه نشر الأنباء المغرضة (في نظر الشيخ الأكبر) التي تقلق راحة أهل الجزيرة وتكرر صفوهم" [الرواية، ص. 24].

إن الشيخ بوصفه حاكما ومسيرا لشؤون رعية الجزيرة يستغل موقعه في السلطة لقمع كل معارضة إعلامية. يلقي القمع، في هذا المقام، في الظاهر تبريره وشرعيته في الراحة التي يسهر الشيخ الأكبر على توفيرها لأهل الجزيرة والتي

تخول له خرق وجوب الإعلام وحرية التعبير والحق في الإعلام. على هذا الأساس، نلاحظ أن الخطاب السياسي الذي تعمل السلطة على تجليته يتحرك في الظاهر وفق آليات تحتكم إلى منطق قد يجعل المتلقي يقتنع بسهولة أن السلطة تراهن على راحة أهل البلدة. وبما أنها تمثل الإرادة الشعبية، فإن كل فعل تقوم بتحقيقه في سبيل الاستجابة للرغبة الجماعية لأهل البلدة مستمد من هذه الإرادة. يتعدد هذا الفعل ويتنوع وفق ما يتطلبه الوضع [المطاردة، التشنيع بالجسد، الترهيب]. إن الرجل [سيدي منصور] يخرج من هذا المنطق ويسعى إلى تحريك أهل البلدة لإعداد العدة لمواجهة العدو العتي القادم من الشمال. ومن الواضح أن إصرار الرجل على صحة هذا النبأ يعني أنه تقصى هذا الخبر في مصدره، وأن هذا الخبر مطابق لحقيقة ما سيجري. تكتسي عملية التحريك في هذا المساق أهمية بالغة لاعتبارين أساسيين.

أولهما: تأتي هذه العملية في غياب قنوات الاتصال بين السلطة وأهل البلدة لنفض السلطة وإقناع الرأي العام بسوء تسييرها وغفلتها عن النظر في شؤونه المصيرية.

ثانيهما: إن عملية التحريك تتعدى الفعل الإعلامي لتتحول إلى معارضة سياسية تسعى، في المقام الأول، إلى تعبئة أهل البلدة للدفاع عن وطنهم وحقهم في الحياة وإشعارهم ضمنياً بتواطؤ السلطة مع العدو.

وينهض تأويل الشيخ لهذه الحقيقة أساساً على إخراج العلاقة الطبيعية: سلطة/إعلام/ معارضة من منطق الحرية في التعبير الحر عن وقائع الحياة اليومية وإدخالها في منطق الصراع والمواجهة والقمع من خلال تأويل /الأنباء/ والنظر إليها على أنها مغرصة.

تأسيساً على هذا، تسعى السلطة من خلال اتهامها للرجل وقمعه إلى نسف الإطار التمثيلي الذي ينضوي تحته برنامج سيدي منصور الهادف إلى إشعار أهل البلدة باجتياز العدو...

انطلاقاً من المعطيات النصية، وتأسيساً على الملاحظات السابقة يمكن أن نسجل، على مستوى القصة، القطيعة الموجودة بين السلطة والشعب، وغياب قنوات التواصل بينهما على جميع الأصعدة. يلجأ الراوي منذ البداية إلى تنويع زوايا النظر لهيئات تلفظية تروي من موقع تجربتها ما وقع لها من أحداث مأسوية تسببت فيها السلطة. إن هذه التجارب هي بمثابة الشهادات الحية التي تجري مجرى الحجة على الممارسات القمعية للسلطة وتلغي مبررات وجودها على هرمها مادام حضورها لا يمثل ولا يخدم إلا فئة "المشايع" القليلة.

من هذه المنطلقات، تشيد استراتيجية الخطاب، على آلية منطقية يتم فيها بناء الفعل الإقناعي من داخل نص الرواية وعلى أساس الوضعيات السردية المفروزة على الصعيد السطحي وانطلاقاً من برامج سردية محكومة سلفاً برهانات صراع الفاعلين في صلب النص. وهي رهانات خطيرة تمس إشكالية السلطة في تسيير شؤون الرعية وتصدع العلاقة بين السلطة والشعب، من ناحية، والسلطة والفئة المثقفة من ناحية ثانية.

بيبليوغرافيا البحث

① ملحق خاص حياة الروائي خلاص جيلالي وإنتاجه :

ولد خلاص جيلالي بعين الدفلى يوم 20 أبريل 1952 وهو من عائلة فلاحين بسطاء. زاول تعليمه الابتدائي بعين الدفلى، ثم التحق بدار المعلمين بخميس مليانة أين تخرج كمدرس سنة 1970. ويتحصل في سنة 1973 على شهادة البكالوريا ليسجل بمعهد الحقوق جامعة الجزائر لتحضير شهادة الليسانس. غير أنه توقف عن الدراسة في السنة الثانية لأداء الخدمة العسكرية في جيجل ووهران [1973-1975]. وعاد إلى التعليم بعد ذلك في عين الدفلى. لم يلبث أن استقال من سلك التعليم ليستقر بالجزائر العاصمة ويشغل كمترجم حر. تخلى عن هذه المهنة ليعمل في العديد من المؤسسات [البنك، وزارة الثقافة، شركة نشر وتوزيع الكتاب، المركز الثقافي بالعاصمة، وتوظف أخيرا في المجلس الأعلى للإعلام ووزارة الاتصال والثقافة التي أخذ منها التقاعد في سنة 1997]. ثم تفرع للكتابة الصحفية والإبداعية.

أعماله المنشورة

أ- المجموعات القصصية:

- أصداء، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.
- خريف رجل المدينة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1 1979، ط2 1984.
- نهاية المطاف بين يديك، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1 1981.
- نهاية المطاف بين يديك، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2 1982.

ب- الروايات:

- حمامات الشفق، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
- عواصف جزيرة الطيور، مارينور، 1998.
- زهور الأزمنة المتوحشة، دار هومة، 1998.
- بحر بلا نوارس، منشورات دحلب، 1998.
- الحب في المناطق المحرمة، دار البرزخ، 2000.

ج- قصص الأطفال:

- سر المشجب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- مرارة الرهان، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- الديك المغرور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- السفر إلى الحب، دار الحضارة، دار ثالة، الجزائر، 1997.

② المراجع المعتمدة في البحث [مرتبة حسب ظهورها في النص]

- خلاص جيلالي، عواصف جزيرة الطيور، المطر والجراد، منشورات مارينور، الجزائر، 1998.

- Jean Claude Coquet, **Le discours et son sujet, Pratique de la grammaire modale**, T2, Klincksieck , Paris, 1985.

- A. J. Greimas, **Du sensII, Essais Sémiotiques**, Seuil, Paris, 1983.

- Grouped 'Entrevernes **Analyse sémiotique des textes**' P. U. L, Lyon 1984.

- J. Courtés, **Analyse sémiotique du discours**, Hachette, Paris, 1991.

- دانيال ريغ، قاموس السبيل، عربي/فرنسي - فرنسي / عربي، لاروس، باريس، 1983.

- سعيد بن كراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، دار تينمیل للطباعة والنشر، مراكش، 1994.

- A. J. Greimas, J. Courtés, **Dictionnaire raisonné de la théorie du langage**, Hachette, Paris, 1979.

- A. J. Greimas, **Du Sens II**, Seuil, Paris, 1983.

- J. Courtés, **Analyse sémiotique du discours**, Hachette, Paris, 1991.

- Louis Panier, **Le discours d'interprétation dans le commentaire biblique** in:

Introduction à l'analyse du discours en sciences sociales, Hachette, Paris, 1979.

- J. C. Giroud, Apologie pour l'historien, Analyse d'un article de Lucien Febvre in:

Introduction à l'analyse du discours en sciences sociales, Hachette, Paris, 1979.

- A. J. Greimas, **Sémantique structurale**, P. U. F, Paris, 1986, p. 87.

- A. J. Greimas, J. Courtés, **Dictionnaire raisonné de la théorie du langage**, Hachette, Paris, 1979.

- A. J. Greimas, **Du Sens**, Seuil, Paris, 1970.

- J. Courtés, **Analyse sémiotique du discours**, Hachette, Paris, 1991.

- Tzvetan Todorov, **Mikhaïl Bakhtine, Le principe dialogique suivi des écrits du cercle de Bakhtine**, Seuil, Paris, 1981.



Dar Majdalawi Pub & Dis,
Telefax: 5349497 - 5349499
P.O.Box: 1758 Amman 11941 Jordan



دار مجدلاوي للنشر والتوزيع
تليفاكس: ٥٣٤٩٤٩٧ - ٥٣٤٩٤٩٩
ص.ب: ١٧٥٨ عمان ١١٩٤١ الأردن

E-mail: customer@majdalawibooks.com
www.majdalawibooks.com

ISBN: 9957-02-250-4